شرح الشيخ ابن دقيق العيد

على



قدم لها وشرح غريبها
الشيخ عبد العزيز السيروان

دار الرائد العربي
بيروت • لبنان

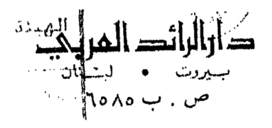
شرح الشيخ ابن دقيق العيد

على



قدم لها وشرح غريبها

الشيخ عبد العزيز عز الدين السيروان



١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م



مقدمة المحقق

إن الحمد لله نحمده، ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

وبعد فإن الإمام النووي قد ساهم مساهمة فعالة في رفد المكتبة الإسلامية بالكثير من الكتب القيمة مما لا يكاد يخلو بيت مسلم من بعضها.

وكان من جملة تآليفه العظيمة، كتبه في الحديث الشريف وشروحاته: ككتاب «رياض الصالحين»، و«شرح صحيح مسلم» و«شرح المهذب» و«الأذكار» و«التقريب» و«الارشاد» و«الخلاصة».

ولا عجب في ذلك فالإمام النووي إمام في الحديث والفقه واللغة مع صلاح وورع وتقوى. وكان من زبدة علومه، ومن خلاصة ما استخلصه من الفوائد

والنصائح والارشادات، خلال حياته العامرة بالعلم والتعلم أربعين حديثاً جمعت علوم الشريعة الإسلامية وعقيدتها اختارها من كتب الصحيح. وشرحها شرحاً موجزاً حتى يسهل حفظها غيباً، وفهمها عقلاً.

وهي من أكثر كتب الحديث تداولاً بين الناس، ونظراً لنفاستها قام بشرحها ما ينوف على الثلاثين عالماً وأحد شروحاته هذا البيان الذي قام بتأليفه العالم الجليل ابن دقيق العيد.

نسأل الله عز وجل أن يلهمنا رشدنا، ويجعلنا من عباده الذين يبلِّغون رسالاته ويخشونه ولا يخشون أحداً سواه، وكفى بالله حسيباً.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين...

الشيخ عبد العزيز عزالدين السيروان
عفا الله تعالى عنه

الإمـام النـووي

هو الإمام يحيى بن شرف بن مري أبو زكريا النووي[١] الدمشقي، ولد سنة ٦٣١هـ في نوى. حيث تولى والده رعايته وتعليمه، ثم انتقل به إلى دمشق سنة ٦٤٩. فقرأ في مدارسها وأخذ عن شيوخها حتى بزَّ زملاءه وتقدم على أمثاله وحفظ وحفَّظ، وتعلم وعلَّم، ودرس وألَّف، وصار من أوائل علماء عصره.

وقد تولى لذلك مشيخة دار الحديث الأشرفية بدمشق وغير ذلك.

كان عالماً تقياً، ورعاً، مجاهداً، مُكثراً في التأليف.

توفي رحمه الله ليلة الأربعاء في ٢٤ رجب سنة ٦٧٦هـ في بلدة نوى.

(١) نسبة إلى نوى من أرض حوران جنوب غربي دمشق إلى حدود الأردن اليوم.

مقدمة الإمام النووي

﴿ وَمَا آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ ﴾

«قرآن كريم»

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، قيوم السموات والأرضين، مدبر الخلائق أجمعين، باعث الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين إلى المكلفين لهدايتهم، وبيان شرائع الدين، بالدلائل القطعية وواضحات البراهين، أحمده على جميع نعمه، وأسأله المزيد من فضله وكرمه، وأشهد أن لا إلّه إلا الله وحده لا شريك له الواحد القهار، الكريم الغفار، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله وحبيبه وخليله أفضل المخلوقين، المكرم بالقرآن العزيز المعجزة المستمرة على تعاقب السنين، والسنن المستنيرة للمسترشدين، سيدنا محمد المخصوص بجوامع الكلم وسماحة الدين، صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر النبيين والمرسلين، وآل كل وسائر الصالحين.

أما بعد: فقد روينا عن علي بن أبي طالب، وعبد الله بن مسعود، ومعاذ بن جبل، وأبي الدرداء، وابن عمر، وابن عباس، وأنس بن مالك، وأبي هريرة، وأبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنهم ـ من طرق كثيرات ومن روايات متنوعات: أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ حَفِظَ عَلى أُمَّتِي أَرْبَعِيْنَ حَدِيْثاً مِنْ أَمْرِ دِيْنِهَا بَعَثَهُ الله يَوْمَ القِيَامَةِ في زُمْرَةِ الفُقَهَاءِ والعُلَمَاءِ». وفي رواية: «بَعَثَهُ اللَّهُ فَقِيْهاً عَالِماً». وفي رواية أبي الدرداء: «وكُنْتُ لهُ يَوْمَ القِيامة شافعاً وشهيْداً». وفي رواية ابن مسعود: «قِيْلَ لَهُ ادْخُلْ مِنْ أَيِّ أَبْوَابِ الجَنَّةِ شِئْتَ. وفي رواية ابن عمر: «كُتِبَ في زُمْرَةِ العُلَمَاء وَحُشِرَ في زُمْرَةِ الشُّهَدَاء».

واتفق الحفاظ على أنه حديث ضعيف وإن كثرت طرقه، وقد صنف العلماء ـ رضي الله عنهم ـ في هذا الباب ما لا يُحصى من المصنفات. فأول من علمته صنف فيه عبد الله بن المبارك، ثم ابن أسلم الطوسي العالم الرباني، ثم الحسن بن سفيان النسائي، وأبو بكر الآجري، وأبو بكر بن إبراهيم الأصفهاني، والدارقطني، والحاكم، وأبو نعيم، وأبو عبد الرحمن السلمي، وأبو سعيد الماليني، وأبو عثمان الصابوني، وعبد الله بن محمد الأنصاري، وأبو بكر البيهقي،

وخلائق لا يحصون من المتقدمين والمتأخرين.

وقد استخرت الله تعالى في جمع أربعين حديثاً اقتداء بهؤلاء الأئمة الأعلام وحفاظ الإسلام. وقد اتفق العلماء على جواز العمل بالحديث الضعيف في فضائل الأعمال، ومع هذا فليس اعتمادي على هذا الحديث ، بل على قوله ﷺ في الأحاديث الصحيحة: «لِيُبْلغْ الشَّاهِدُ مِنْكُمْ الغَائِب» وقوله ﷺ: «نَضَّرَ الله امْرءاً سمِع مقالتِي فَوَعَاهَا فبلَّغها كما سَمِعَهَا»، ثم من العلماء من جمع الأربعين في أصول الدين، وبعضهم في الفروع، وبعضهم في الجهاد، وبعضهم في الزهد، وبعضهم في الآداب، وبعضهم في الخطب، وكلها مقاصد صالحة رضي الله عن قاصديها. وقد رأيت جمع أربعين أهم من هذا كله، وهي أربعون حديثاً مشتملة على جميع ذلك، وكل حديث منها قاعدة عظيمة من قواعد الدين، قد وصفه العلماء بأن مدار الإسلام عليه، أو هو نصف الإسلام أو ثلثه، أو نحو ذلك، ثم التزم في هذه الأربعين أن تكون صحيحة، ومعظمها في صحيحي البخاري ومسلم. وأذكرها محذوفة الأسانيد، ليسهل حفظها ويعم الانتفاع بها إن شاء الله تعالى، ثم أتبعها بباب في ضبط ما خفي من ألفاظها، وينبغي لكل راغب في الآخرة أن يعرف هذه

الأحاديث لما اشتملت عليه من المهمات واحتوت عليه من التنبيه على جميع الطاعات، وذلك ظاهر لمن تدبره وعلى الله اعتمادي وإليه تفويضي واستنادي، وله الحمد والنعمة وبه التوفيق والعصمة.

الحديث الأول

الإخــلاص

عن أَمِيــرِ ٱلمُؤْمِنِينَ أَبِي حَفْصٍ عُمَــرَ بــنِ الخــطَّاب رضي اللَّهُ عنــه قــال: سَمِعْـتُ رَسولَ الله ﷺ يقولُ:

«إِنَّمَا الأَعْمَالُ بالنِّيَّات وإِنَّما لِكُلّ امْرِىءٍ ما نَوَى. فَمَنْ كانَتْ هِجْرَتُهُ إلى اللَّهِ ورَسُولِهِ فَهِجْرَتُهُ إلى اللّهِ ورَسُولِهِ، ومَنْ كانَتْ هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصِيبُهَا أو امْرَأةٍ يَنْكِحُهَا فَهِجْرَتُهُ إلى ما هَاجَرَ إليه».

رواهُ إماما الـمُحَـدِّثين أَبُو عَبْـدِ اللَّهِ محمّدُ بنُ إسمـاعيلَ بن إبـراهيمَ بن الـمُغيرة بن بـردزبه

البخاري وأبو الحسن بن مُسْلِمُ بنُ الحَجَّاج بن مُسْلِمٍ القُشَيْرِيُّ النَّيسَابُورِيُّ في صَحِيحَيْهِمَا اللَّذَيْنِ هُمَا أَصَحُّ الْكُتُبِ الـمُصَنَّفَةِ.

هذا حديث صحيح متفق على صحته وعظيم موقعه وجلالته وكثرة فوائده رواه الإمام أبو عبد الله البخاري[١] في غير موضع من كتابه، ورواه أبو الحسين مسلم[٢] بن الحجاج في آخر كتاب الجهاد، وهو أحد الأحاديث التي عليها مدار الإسلام، قال الإمام أحمد والشافعي رحمهما الله: (يدخل في حديث الأعمال بالنيات ثلث العلم) قاله: البيهقي[٣] وغيره. وسبب ذلك أن كسب العبد يكون بقلبه ولسانه وجوارحه والنية أحد الأقسام الثلاثة.

(١) محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة الجعفي أبو عبد الله البخاري الحافظ أمير، قال رضي الله عنه: ما وضعت فيه حديثاً شريفاً. إلا اغتسلت وصليت قبل ذلك ركعتين، توفي سنة ٢٥٦هـ.

(٢) مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري أبو الحسين الحافظ أحد الأئمة الأعلام وصاحب الجامع الصحيح قال الحافظ النيسابوري: ما تحت أديم السماء أصح من كتاب مسلم في علم الحديث، توفي سنة ٢٦١هـ. (تذكرة الحفاظ ٢/١٥٠) (التهذيب ١٠/١٢٦).

(٣) أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي الفقيه الشافعي الحافظ الكبير، توفي سنة ٤٥٨هـ بنيسابور.

وروي عن الشافعي رضي الله عنه أنه قال: يدخل هذا الحديث في سبعين باباً من الفقه، وقال جماعة من العلماء: هذا الحديث ثلث الإسلام.

واستحب العلماء أن تستفتح المصنفات بهذا الحديث، وممن ابتدأ به في أول كتابه الإمام أبو عبد الله البخاري، وقال عبد الرحمن بن مهدي[١] ينبغي لكل من صنف كتاباً أن يتبدىء فيه بهذا الحديث تنبيهاً للطالب على تصحيح النية.

وهذا حديث مشهور بالنسبة إلى آخره غريب بالنسبة إلى أوله لأنه لم يروه عن النبي ﷺ إلا عمر بن الخطاب رضي الله عنه ولم يروه عن عمر[٢] إلا علقمة بن أبي وقاص[٣] ولم يروه عن علقمة إلا محمد بن إبراهيم التيمي ولم يروه عن محمد بن إبراهيم[٤] إلا يحيى بن سعيد الأنصاري[٥] ثم اشتهر بعد ذلك بعد فرواه عنه أكثر من مائتي

---

(١) عبد الرحمن بن مهدي بن حسان الأزدي أبو سعيد الحافظ الإمام. توفي سنة ١٩٨هـ. له عدة مؤلفات بالحديث قال عنه الشافعي: لا أعرف له نظيراً في الدنيا (تاريخ بغداد ١٠/٢٤٠) (التهذيب ٦/٢٧٩) (الأعلام ٣/٣٣٩).

(٢) أمير المؤمنين.

(٣) علقمة بن وقاص الليثي ثقة قليل الحديث توفي بالمدينة في خلافة عبد الملك بن مروان.

(٤) محمد بن إبراهيم بن الحرث التيمي المدني أحد العلماء المشاهير كان فقهياً محدثاً توفي سنة ١٢٠هـ.

(٥) يحيى بن سعيد بن قيس الأنصاري قاضي المدينة ثقة حجة كثير =

إنسان أكثرهم أئمة.

ولفظة (إنما) للحصر تثبت المذكور وتنفي ما عداه وهي تارة تقتضي الحصر المطلق وتارة تقتضي حصراً مخصوصاً يفهم ذلك بالقرائن كقوله تعالى: ﴿إنما أنت منذر﴾(١) فظاهره الحصر في النذارة والرسول لا ينحصر في ذلك بل له أوصاف كثيرة جميلة كالبشارة وغيرها وكذلك قوله تعالى: ﴿إنما الحياة الدنيا لعب ولهو﴾(٢) فظاهره والله أعلم الحصر باعتبار من آثرها وأما بالنسبة إلى ما في نفس الأمر فقد تكون سبباً إلى الخيرات ويكون ذلك من باب التغليب فإذا وردت هذه اللفظة فاعتبرها فإن دل السياق والمقصود من الكلام على الحصر في شيء مخصوص فقيده به وإلا فاحمل الحصر على الاطلاق ومن هذا قوله ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات» والمراد بالأعمال الأعمال الشرعية ومعناه لا يعتد بالأعمال بدون النية مثل الوضوء والغسل والتيمم وكذلك الصلاة والزكاة والصوم والحج والاعتكاف وسائر العبادات، فأما إزالة النجاسة فلا تحتاج إلى نية لأنها من باب التروك والترك لا يحتاج إلى نية، وذهب جماعة إلى صحة الوضوء والغسل بغير نية.

= الحديث توفي سنة ١٤٣هـ بالهاشمية بعد توليه القضاء في الحيرة (تاريخ بغداد ١٠١/١٤) (التهذيب ٢٢١/١١).

(١) سورة الرعد. الآية: ٧

(٢) سورة محمد، الآية: ٣٦.

وفي قوله: «إنما الأعمال بالنيات» محذوف واختلف العلماء في تقديره فالذين اشترطوا النية قدروا صحة الأعمال بالنيات والذين لم يشترطوها قدروا كمال الأعمال بالنيات.

وقوله «وإنما لكل امرىء ما نوى» قال الخطابي يفيد معنى خاصاً غير الأول وهو تعيين العمل بالنية، وقال الشيخ محيي الدين: فائدة ذكره أن تعيين المنوي شرط، فلو كان على إنسان صلاة مقضية لا يكفيه أن ينوي الصلاة الفائتة، بل يشترط أن ينوي كونها: ظهراً أو عصراً أو غيرهما، ولولا اللفظ الثاني لاقتضى الأول صحة النية بلا تعيين، أو أوهم ذلك. والله أعلم.

وقوله: «فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله» المتقرر عند أهل العربية أن الشرط والجزاء والمبتدأ والخبر لا بد أن يتغايرا، وههنا قد وقع الاتحاد، وجوابه فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله نية وقصداً فهجرته إلى الله ورسوله حكماً وشرعاً.

وهذا الحديث ورد على سبب: لأنهم نقلوا أن رجلاً هاجر من مكة إلى المدينة ليتزوج امرأة يقال لها أم قيس، لا يريد بذلك فضيلة الهجرة فكان يقال له مهاجر أم قيس والله أعلم.

الحديث الثاني

أركان الإسلام والإيمان والاحسان

عَن عُمَر رضِي اللَّهُ عنه أيْضاً قال:

«بَيْنَمَا نَحْنُ جُلُوسٌ عِنْدَ رَسُولِ الله ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ إِذْ طَلَعَ علينا رَجُلٌ شَدِيدُ بَياضِ الثّيابِ شَديدُ سَوَادِ الشَّعْرِ، لا يُرى عليه أثرُ السَّفَرِ، ولا يَعْرِفُهُ مِنَّا أحَدٌ، حتى جلَسَ إلى النبيِّ ﷺ فأسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إلى رُكْبَتَيْهِ، ووَضَعَ كَفَّيْهِ على فَخِذَيْه، وقال: يا محمَّدُ، أَخْبِرْنِي عَن الإسلامِ؟ فقالَ رَسُولُ الله ﷺ:

«الإسْلامُ أنْ تَشْهَدَ أنْ لا إلَهَ إلَّا اللَّهُ وأنَّ محمَّداً رسولُ الله، وتُقِيمَ الصَّلاةَ، وتُؤْتِيَ الزَّكاةَ، وتَصُومَ رَمَضانَ، وَتحُجَّ الْبَيْتَ إن اسْتَطَعْتَ إليه سَبيلاً.

قالَ: صَدَقْتَ. فَعَجِبْنَا لهُ يَسْأَلُهُ ويُصَدِّقُهُ. قال: فأَخْبِرْنِي عَنِ الإِيمانِ؟ قال: أنْ تُؤْمِنَ باللّـهِ، وملاَئِكَتِه، وكُتبِـهِ، ورُسُلِهِ، واليَوْمِ الآخِـرِ، وتُؤْمِنَ بالْقَدَرِ خَيْرِهِ وشَرِّهِ. قال: صَدَقْتَ قال: فأخْبِرْنِي عَنِ الإِحْسَانِ؟ قال: أنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كأَنَّكَ تَرَاهُ، فإِنْ لَمْ تَكُنْ تَراهُ فإِنَّهُ يَرَاكَ. قالَ: فأَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعةِ؟ قال: ما الـمَسْؤُولُ عنها بأعْلَمَ منَ السَّائِلِ. قال: فأخْبِرْنِي عَنْ أَمارَاتِها. قال: أنْ تَلِدَ الأَمَةُ رَبَّتَها، وأنْ تَرَى الحُفَاةَ العُرَاةَ العالَةَ رِعاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ في الْبُنْيَانِ ثُمَّ انْطَلَقَ فَلَبِثْتُ مَلِيًّا، ثُمَّ قال: يا عُمَرُ، أَتَـدْرِيَ مَن السَّائِلُ؟ قُلْتُ: اللَّهُ ورسُولُهُ أعلَمُ. قال: فإِنَّـهُ جِبْرِيلُ أَتاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ».

رواهُ مُسلم

هذا حديث عظيم قد اشتمل على جميع وظائف الأعمال الظاهرة والباطنة، وعلوم الشريعة كلها راجعة إليه، ومتشعبة منه لما تضمنه من جمعه علم السنة، فهو كالأم للسنة كما سميت الفاتحة أم القرآن لما تضمنته من جمعها معاني القرآن.

وفيه دليل على تحسين الثياب والهيئة والنظافة عند الدخول على العلماء والفضلاء والملوك، فإن جبريل أتى معلماً للناس بحاله ومقاله.

قوله: «لا يُرى عليه أثر السفر» المشهور ضم الياء من يرى مبنياً لما لم يسم فاعله، ورواه بعضهم بالنون المفتوحة وكلاهما صحيح.

قوله: «ووضع كفيه على فخذيه وقال: يا محمد» هكذا هو المشهور الصحيح ورواه النسائي[1] بمعناه وقال:

(١) أحمد بن شعيب بن علي النسائي أبو عبد الرحمن القاضي الحافظ صاحب السنن وأحد الأئمة. توفي بفلسطين سنة ٢٠٤هـ.

فوضع يديه على ركبتي النبي ﷺ فارتفع الاحتمال الذي في لفظ كتاب «مسلم» فإنه قال فيه فوضع كفيه على فخذيه وهو محتمل.

وقد استفيد من هذا الحديث أن الإسلام والإيمان حقيقتان متباينتان لغة وشرعاً وهذا هو الأصل في الأسماء المختلفة وقد يتوسع فيهما الشرع فيطلق أحدهما على الآخر على سبيل التجوز.

قوله: «فعجبنا له يسأل ويصدقه» إنما تعجبوا من ذلك لأن ما جاء به النبي ﷺ لا يعرف إلا من جهته، وليس هذا السائل ممن عرف بلقاء النبي ﷺ ولا بالسماع منه، ثم هو قد سأل سؤال عارف محقق مصدق فتعجبوا من ذلك.

قوله: «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه» الإيمان بالله: هو التصديق بأنه سبحانه موجود موصوف بصفات الجلال والكمال، منزه عن صفات النقص، وأنه واحد حق، صمد فرد، خالق جميع المخلوقات، متصرف فيما يشاء، ويفعل في ملكه ما يريد.

والإيمان بالملائكة هو التصديق بأنهم عباد مكرمون، لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون.

والإيمان برسل الله: هو أنهم صادقون فيما أخبروا به عن الله تعالى، أيدهم بالمعجزات الدالة على صدقهم،

وأنهم بلغوا عن الله رسالاته، وبينوا للمكلفين ما أمرهم الله به، وأنه يجب احترامهم، وأن لا يفرق بين أحد منهم.

والإيمان باليوم الآخر: هو التصديق بيوم القيامة وما اشتمل عليه من الإعادة بعد الموت، والحشر والنشر، والحساب والميزان والصراط، والجنة والنار، وأنهما دار ثوابه وجزائه للمحسنين والمسيئين إلى غير ذلك مما صح من النقل.

والإيمان بالقدر: هو التصديق بما تقدم ذكره وحاصله ما دل عليه قوله تعالى: ﴿ واللَّهُ خَلَقَكُمْ وما تعلمونَ﴾(١) ﴿ إنَّا كلَّ شيءٍ خلقناهُ بِقَدَرٍ﴾(٢) ونحو ذلك. ومن ذلك قوله ﷺ في حديث ابن عباس: «واعلم أن الامة لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلاّ بشيءٍ قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضرُّوك بشيء لم يضرُّوك إلاّ بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف»(٣).

ومذهب السّلف وأئمة الخلف أنَّ من صدق بهذه الأمور

---

(١) سورة الصافات، ٩.
(٢) سورة القمر، ٤٩.
(٣) رواه الترمذي، في أبواب صفة القيامة برقم ٢٥١٨، وهو قطعة من الحديث التاسع عشر.

تصديقاً جازماً لا ريب فيه ولا تردد كان مؤمناً حقاً سواء كان ذلك عن براهين قاطعة أو عن اعتقادات جازمة.

وقوله في الاحسان: «أن تعبد الله كأنك تراه» إلخ حاصله راجع إلى إتقان العبادات، ومراعاة حقوق الله تعالى ومراقبته. واستحضار عظمته وجلالته حال العبادات.

قوله: «فأخبرني عن أَماراتها» بفتح الهمزة، والأمارة العلامة، والأَمَة هٰهنا الجارية المستولدة، وربتها سيدتها وجاء في رواية فعلها، وقد رُوي أن أعرابياً سئل عن هذه الناقة قال: أنا بعلها ويسمى الزوج: بعلاً، وهو في الحديث ربتها بالتأنيث، واختلف في قوله: «أنْ تلدَ الأمة ربتها» فقيلَ: المراد به أن يستولي المسلمون على بلاد الكفر فيكثر التسرِّي فيكون ولد الأَمة من سيدها بمنزلة سيدها لشرفة بأبيه، وعلى هذا فالذي يكون من أشراط الساعة استيلاء المسلمين على المشركين وكثرة الفتوح والتسرِّي، وقيل: معناه أن تفسد أحوال الناس حتى يبيع السادة أمهات أولادهم، ويكثر ترددهن في أيدي المشترين فربما اشتراها ولدها ولا يشعر بذلك، فعلى هذا الذي يكون من أشراط الساعة غلبة الجهل بتحريم بيعهن، وقيل: معناه أن يكثر العقوق في الأولاد فيعامل الولد أمه معاملة السيِّد أَمته من الإهانة والسبِّ.

و«العالة» بتخفيف اللام: جمع عائل وهو الفقير.

وفي الحديث كراهة ما لا تدعو الحاجة إليه من تطويل البناء، وتشييده، وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «يؤجر ابن آدم في كل شيء إلّا ما وضعه في هذا التراب»[١]. ومات رسول الله ﷺ ولم يضع حجراً على حجر، ولا لبنة على لبنة، أي لم يشيد بناءه ولا طوله ولا تأنق فيه.

قوله: «رعاء الشاء» إنما خص رعاء الشاء بالذِّكر لأنهم أضعف أهل البادية، معناه، أنهم مع ضعفهم وبعدهم عن أسباب ذلك بخلاف أهل الإبل، فإنهم في الغالب ليسوا عالة ولا فقراء.

وقوله: «ولبثت ملياً» قد روي بالتاء يعني لبث عمر رضي الله عنه، وروي فلبث بغير تاء يعني أقام النبي ﷺ بعد انصرافه، وكلاهما صحيح المعنى، وقوله: «ملياً» هو بتشديد الياء أي زماناً كثيراً وكان ذلك ثلاثاً، هكذا جاء مبيناً في رواية أبي داود وغيره.

وقوله: «أتاكم يعلمكم دينكم» أي قواعد دينكم، أو كليات دينكم قاله الشيخ محيي الدين[٢] في شرحه لهذا الحديث في «صحيح مسلم».

أهم ما يذكر في هذا الحديث بيان: الإسلام،

---

(١) الترمذي: قيامة (٤٠)، ابن ماجه: زهد (١٣).
(٢) أي: النووي.

والإيمان، والإحسان ووجوب الإيمان بإثبات قدرة الله تعالى، وذكر في بيان الإسلام والإيمان كلاماً طويلاً، وحكى فيه أقوال جماعة من العلماء منها ما حكاه عن الإمام أبي الحسين المعروف بابن بطال المالكي[١] إنه قال مذهب جماعة أهل السنة من سلف الأمة وخلفها أن الإيمان قول وعمل يزيد وينقص بدليل قوله تعالى: ﴿ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم﴾[٢] ونحوها من الآيات. قال بعض العلماء نفس التصديق لا يزيد ولا ينقص، والإيمان الشرعي يزيد وينقص بزيادة ثمراته وهي الأعمال ونقصانها، قالوا: وفي هذا توفيق بين ظواهر النصوص التي جاءت بالزيادة وبين أصل وضعه في اللغة وهذا الذي قاله هؤلاء، وإن كان ظاهراً فالأظهر والله أعلم أن نفس التصديق يزيد بكثرة النظر بظاهر الأدلة، ولهذا يكون إيمان الصدِّيقين أقوى من إيمان غيرهم، بحيث لا تعتريهم الشبه ولا يتزلزل إيمانهم بعارض، بل لا تزال قلوبهم منشرحة منيرة، وإن اختلفت عليهم الأحوال، فأما غيرهم من المؤلفة ومن قاربهم فليسوا كذلك، وهذا لا يمكن إنكاره ولا يشك في نفس تصديق أبي بكر الصديق[٣] رضي الله عنه أنه لا يساويه

(١) هو علي بن خلف بن عبد الملك بن بطال البكري القرطبي المالكي (أبو الحسن) محدث فقيه. توفي سنة ٤٤٩هـ. له «شرح البخاري» (شذرات الذهب ٣/٢٨٣) (الأعلام ٤/٢٨٥).

(٢) سورة الفتح: ٤.

(٣) هو سيدنا عبد الله بن عثمان بن عامر التيمي، شهد المشاهد مع =

تصديق آحاد الناس، ولهذا قال البخاري في صحيحه: «قال ابن أبي مليكة[١] أدركت ثلاثين رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ كلهم يخاف النفاق على نفسه ما منهم أحد يقول إنه على إيمان جبريل وميكائيل عليهما السلام» فأما إطلاق اسم الإيمان على الأعمال فمتفق عليه عند أهل الحق ودلائله أكثر من أن تحصر قال الله تعالى: ﴿وما كان الله ليضيع إيمانكم﴾[٢] أي صلاتكم وحكي عن الشيخ أبي عمرو بن الصلاح[٣] في قوله ﷺ: «الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأنَّ محمداً رسول الله، وتقيم الصلاة» إلى آخره ثم فسَّر الإيمان بقوله: أن تؤمن بالله تعالى وملائكته إلى آخره، قال رحمه الله: هذا بيان أصل الإيمان وهو التصديق الباطن، وبيان أصل الإسلام وهو الإستسلام والانقياد الظاهر، وحكم الإسلام في الظاهر ثبت في الشهادتين، وإنما أضاف إليها الصلاة

= رسول الله ﷺ وهو أفضل الصحابة. توفي سنة ١٣هـ عن ثلاث وستين سنة ودفن بالحجرة النبوية الشريفة.

(١) هو عبد الله بن عبيد الله بن أبي مليكة (أبو بكر) المكي، من التابعين، ثقة تولى قضاء الطائف توفي سنة ١١٧هـ. (التهذيب ٥/٣٠٦) (الأعلام ٤/١٠٢).

(٢) سورة البقرة: ١٤٣.

(٣) هو عثمان بن عبد الرحمن بن موسى الشهرزوري الشهير بابن الصلاح أحد كبار العلماء في التفسير والحديث والفقه توفي سنة ٦٤٣ هـ وله مؤلفات عديدة (شذرات الذهب ٥/٢٢١) وفيات الأعيان ١/٣١٢).

والزكاة والصوم والحج لكونها أظهر شعائر الإسلام وأعظمها وبقيامه بها يصح استسلامه.

ثم أن اسم الإيمان يتناول ما فسَّر به الإسلام في هذا الحديث وسائر الطاعات لكونها ثمرات التصديق الباطن الذي هو أصل الإيمان ولهذا لا يقع اسم المؤمن المطلق على من ارتكب كبيرة أو ترك فريضة لأن اسم الشيء مطلقاً يقع على الكامل منه ولا يستعمل في الناقص ظاهراً إلا بنية وكذلك جاز إطلاق نفيه عنه في قوله ﷺ: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن»(١).

واسم الإسلام يتناول أيضاً ما هو أصل الإيمان وهو التصديق الباطن ويتناول أصل الطاعات، فإن ذلك كله استسلام قال فخرج بما ذكرناه أن الإيمان والإسلام يجتمعان ويفترقان، وأن كل مؤمن مسلم، وليس كل مسلم مؤمناً، وقال: فهذا التحقيق وافٍ بالتوفيق ونصوص الكتاب والسنة الواردة في الإيمان والإسلام التي طال ما غلط فيها الخائضون، وما حققناه من ذلك موافق لمذهب جماهير العلماء من أهل الحديث وغيرهم، والله أعلم.

---

(١) متفق عليه: البخاري ٨٦/٥ في المظالم باب النهى وفي الأشربة وفي الحدود باب الزنا وفي المحاربين باب الزناة، مسلم برقم (٥٧)، ومسند الإمام أحمد (٧٣١٦ ـ تحقيق شاكر).

الحديث الثالث

دعائم الإسلام

عن أبي عَبْدِ الرَّحمنِ ـ عبدِ اللَّهِ بنِ عُمَرَ بنِ الخَطَّاب ـ رَضي اللَّهُ عنهُمَا ـ قال: سَمِعْتُ رسُولَ اللَّهِ ﷺ يقولُ:

«بُنِيَ الإسْلاَمُ على خَمْسٍ : شهادَةِ أنْ لا إلَهَ إلاّ اللَّهُ وأنَّ محمَّداً رسولُ اللَّهِ، وإقامِ الصَّلاَةِ، وإيتاءِ الزَّكاةِ، وحَجِّ البَيْتِ، وصَوْمِ رَمَضانَ».

رواهُ البُخارِيُّ ومسلم

قال أبو العباس القرطبي[١] رحمه الله تعالى يعني أن هذه الخمس أساس دين الإسلام وقواعده التي عليها بني وبها يقوم وإنما خص هذه بالذكر ولم يذكر منها الجهاد مع أنه يظهر الدين ويقمع عناد الكافرين، لأن هذه الخمس فرض دائم، والجهاد من فروض الكفايات وقد يسقط في بعض الأوقات.

وقد وقع في بعض الروايات في هذا الحديث تقديم الحج على الصوم وهو أهم، والله أعلم، لأن ابن عمر لما سمع المستعيد يقدم الحج على الصوم زجره ونهاه عن ذلك وقدم الصوم على الحج وقال: هكذا سمعته من رسول الله ﷺ.

وفي رواية لابن عمر: «بني الإسلام على أن تعبد الله وتكفر بما سواه وإقام الصلاة» إلى آخره، وفي رواية أخرى

(١) هو أحمد بن عمر بن إبراهيم الأنصاري القرطبي فقيه مالكي من رجال الحديث. توفي سنة ٦٥٦هـ.

أن رجلاً قال لعبد الله بن عمر: ألا تغزو؟ فقال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الإسلام بني على خمس»[١] وقع في بعض الطرق على خمسة بالهاء وفي بعضها بلا هاء وكلاهما صحيح.

وهذا الحديث أصل عظيم في معرفة الدين وعليه اعتماده فإنه قد جمع أركانه.

(١) متفق عليه: البخاري: ٤٧/١ في الايمان، باب قول النبي ﷺ. مسلم برقم ١٦ في الإيمان، باب أركان الإسلام.

الحديث الرابع

أحوال الإنسان

عن أَبِي عَبْدِ الرَّحْمن عبدِ اللَّهِ بنِ مسعودٍ رضي اللَّهُ عنه قال: حدَّثَنا رسـولُ الله ﷺ وهُوَ الصَّادِقُ الـمَصْدُوق:

«إن أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ في بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْماً نُطْفَةً، ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلك، ثُمَّ يَكُون مُضْغَةً مِثْلَ ذَلك، ثُمَّ يُرْسَلُ إليه المَلكُ فَيَنْفُخُ فيه الرُّوحَ، ويُؤْمَرُ بأرْبَعِ كلِمَاتٍ: بِكَتْبِ رِزْقِهِ، وأجَلِهِ، وعَمَلِهِ، وشَقِيٌّ أو سَعِيدٌ. فَوَاللَّهِ الَّذِي لا إلَه غَيْرُهُ إنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بعَمَلِ أهْلِ الجَنَّةِ حتى ما يَكُونَ بَيْنَهُ وبَيْنَهَا إلا ذِراعٌ فَيَسْبِقُ عليه الْكِتَاب فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُها، وإنَّ

أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حتى ما يَكُونَ بَيْنَهُ وبَيْنَهَا إلَّا ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عليْه الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ فَيَدْخُلُهَا».

رَوَاهُ البُخَارِيُّ ومُسْلِمٌ

قوله: «وهو الصادق المصدوق» أي الصادق في قوله المصدوق فيما يأتيه من الوحي الكريم.

قال بعض العلماء: معنى قوله: «إن أحدكم يُجمع خلقه في بطن أمه» أن المعنى يقع في الرحم متفرقاً فيجمعه الله تعالى في محل الولادة من الرحم في هذه المـدة، وقد جاء عن ابن مسعود في تفسير ذلك (أن النطفة إذا وقعت في الرحم فأراد الله تعالى أن يخلق منها بشراً طارت في بشر المرأة تحت كل ظفر وشعر ثم تمكث أربعين ليلة ثم تصير دماً في الرحم فذلك جمعها وهو وقت كونها علقة).

قوله: «ثم يرسل إليها المَلَكَ» يعني الملك الموكل بالرحم.

قوله: «وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة» إلى آخره ظاهر الحديث أن هذا العامل كان عمله صحيحاً وأنه قرب من الجنة بسبب عمله حتى على دخولها وإنما منعه من

ذلك سابق القدر الذي يظهر عند الخاتمة فإذاً الأعمال بالسوابق لكن لما كانت السابقة مستورة عنا والخاتمة ظاهرة جاء في الحديث: (إنما الأعمال بالخواتيم)[١] يعني عندنا بالنسبة إلى اطلاعنا في بعض الأشخاص وفي بعض الأحوال. وأما الحديث الذي ذكره مسلم في «صحيحه» في كتاب الإيمان: أن رسول الله ﷺ قال: «إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس وهو من أهل النار فإنه لم يكن عمله صحيحاً في نفسه وإنما كان رياء وسمعة فيستفاد من ذلك الحديث ترك الالتفات إلى الأعمال والركون إليها والتعويل على كرم الله ورحمته.

وقوله قبل ذلك: «ويُؤمر بأربع كلمات بكتب رزقه وأجله» هو بالباء الموحدة في أوله على البدل من أربع كلمات.

وقوله: «شقي أو سعيد» مرفوع لأنه خبر مبتدأ محذوف تقديره وهو شقي أو سعيد.

وقوله ﷺ: «فوالذي لا إلٓه غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة» إلى قوله: «فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها» المراد أن هذا قد يقع في نادرٍ من الناس لا أنه غالب فيهم وذلك من لطف الله سبحانه وسعة رحمته، فإن انقلاب الناس من الشرك إلى الخير كثير، وأما انقلابهم

(١) جمع خاتمة.

من الخير إلى الشر ففي غاية الندور، ولله الحمد والمنة على ذلك.

وفي هذا الحديث اثبات القدر كما هو مذهب أهل السنة، وأنَّ جميع الواقعات بقضاء الله تعالى وقدره، خيرها وشرها، نفعها وضرها، قال الله تعالى: ﴿ **لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون** ﴾[١] ولا اعتراض عليه في ملكه يفعل في ملكه ما يشاء. قال الإمام السمعاني[٢] سبيل معرفة هذا الباب التوفيق من الكتاب والسنة دون محض القياس، ومجرد العقول[٣] فمن عَدَلَ عن التوفيق منه ضل وتاه في مجال الحيرة، ولم يبلغ شفاء النفس ولا يصل إلى ما يطمئن به القلب لأن القدر سر من أسرار الله تعالى ضربت دونه الأستار، اختص سبحانه به وحجبه عن عقول الخلق ومعارفهم لما علمه من الحكمة، وواجب علينا أنْ نقف حيث حد لنا فلا نتجاوز، وقد حجب الله تعالى علم القدر عن العالم فلا يعلمه مَلَك ولا نبي مرسل، وقيل إن سر القدرة ينكشف لهم إذا دخلوا الجنة ولا ينكشف قبل ذلك.

وقد ثبتت الأحاديث بالنهي عن ترك العمل واتكاله على

(١) سورة الأنبياء: ٢٣.
(٢) هو منصور بن محمد بن عبد الجبار المروزي الشافعي من العلماء بالحديث والتفسير. توفي سنة ٤٨٩هـ.
(٣) لأن العقول لها حدود تقف عندها، وتكلُّ دونها.

ما سبق من القدر، بل تجب الأعمال والتكاليف التي ورد بها الشرع وكلٌّ ميسر لما خلق له لا يقدر على غيره فمن كان من أهل السعادة يسَّره الله لعمل أهل السعادة، ومن كان من أهل الشقاوة يسَّرَهُ الله تعالى لعمل أهل الشقاوة للحديث، وقال الله تعالى: ﴿فسنيسره لليسرى﴾[١] ﴿فسنيسره للعسرى﴾[٢] قال العلماء: وكتاب الله تعالى ولوحه وقلمه كل ذلك مما يجب الإيمان به، وأما كيفية ذلك وصفته فعلمه إلى الله تعالى: ﴿لا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء﴾[٣] والله أعلم.

---

(١) سورة الليل: ٧.
(٢) سورة الليل: ١٠.
(٣) قطعة من آية الكرسي.

الحديث الخامس

النهي عن البدع

عَنْ أمِّ المُؤْمِنِينَ أمِّ عَبْدِ اللَّهِ عائِشَةَ رضِي اللَّهُ عنها قالَتْ: قالَ رسولُ اللَّهِ ﷺ:

«مَنْ أَحْدَثَ في أمْرُنَا هذا ما لَيْسَ منه فَهْوَ رَدٌّ.

رَواهُ البُخارِيُّ ومُسْلِمٌ

وفي رِوايَةٍ لِمُسْلِمٍ:

«مَنْ عَمِلَ عَمَلاً لَيْسَ عليه أمْرَنَا فَهْوَ رَدٌّ».

قال أهل اللغة الرد هنا بمعنى المردود أي فهو باطل غير معتد به. وقوله: «ليس عليه أمرنا» يعني حكمنا.

هذا الحديث قاعدة عظيمة من قواعد الدين(*)، وهو من جوامع الكلم التي أوتيها المصطفى ﷺ، فإنَّه صريح في رد كل بدعة، وكل مختَرَع، ويستدل به على إبطال جميع العقود الممنوعة، وعدم وجود ثمراتها، واستدل به بعض الأصوليين على أن النهي يقتضي الفساد.

وفي الرواية الأخرى وهي قوله: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد» صريح في ترك كل محدثة سواء أحدثها فاعلها أو سُبق إليها فإنه قد يحتج به بعض المعاندين، إذا فعل البدعة فيقول ما أحدثت شيئاً فيحتج عليه بهذه

(*) راوية الحديث: هي أم المؤمنين السيدة عائشة بنت سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنهما أم عبد الله الفقيهة الربانية، أحب نساء النبي إليه ﷺ وقال عنها: فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام وقال عروة: ما رأيت أعلم بالشعر من عائشة توفيت سنة ٥٧هـ ودفنت في البقيع.

الرواية، وهذا الحديث مما ينبغي العناية بحفظه وإشاعته واستعماله في إبطال المنكرات، فإنه يتناول ذلك كله. فأما تفريع الأصول التي لا تخرج عن السنة فلا يتناولها هذا الرد، ككتابة القرآن العزيز في المصاحف، وكالمذاهب التي عن حسن نظر الفقهاء المجتهدين الذين يردون الفروع إلى الأصول، التي هي قول رسول الله ﷺ وكالكتب الموضوعة في النحو والحساب والفرائض، وغير ذلك من العلوم، مما مرجعه ومبناه على أقوال رسول الله ﷺ، وأوامره فإن ذلك لا يدخل في هذا الحديث.

الحديث السادس

ترك الشبهات

عن أبي عَبْدِ اللَّهِ النُّعْمَان بنِ بَشِيرٍ رضِي اللَّهُ عنهما قالَ: سَمِعْتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ:

«إنَّ الحَلاَلَ بَيِّنٌ، وإنَّ الحَرَامَ بَيِّنٌ، وَبَيْنَهُمَا أمُورٌ مُشْتَبِهَاتٌ لا يَعْلمُهُنَّ كَثِيرٌ مِنَ النَّاس، فَمَنِ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ فَقَدِ اسْتَبْرَأ لِدِينِهِ وعِرْضِهِ، ومَنْ وَقَعَ في الشُّبُهَاتِ وَقَعَ في الحَرَامِ، كالرَّاعِي يَرْعَى حَوْلَ الْحِمَى يُوشِكُ أنْ يَرْتَعَ فيهِ، ألاَ وإنَّ لِكُلِّ مَلِك حِمَىً، ألا وإنَّ حِمَى اللَّهِ مَحَارِمُهُ ألاَ، وإن في الجَسَدِ مُضْغَةً إذا صَلَحتْ صَلَحَ الجَسَدُ كلُّهُ، وإذا فَسَدتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ: ألاَ وهي القَلْبُ».

رَوَاهُ البُخارِيُّ ومُسْلِمٌ

هذا الحديث أصل عظيم من أصول الشريعة قال أبو داود السجستاني[1] الإسلام يدور على أربعة أحاديث ذكر منها هذا الحديث وأجمع العلماء على عظيم موقعه وكثير فوائده.

قوله: «الحلال بين والحرام بين وبينهما أمور مشتبهات» يعني أن الأشياء ثلاثة أقسام، فما نص الله على تحليله فهو الحلال كقوله تعالى: ﴿ أُحلَّ لكم الطيباتُ، وطعامُ الذين أُوتوا الكتابَ حِلٌ لَكُمْ ﴾[2] وقوله: ﴿ وأُحِلَّ لكم ما وراءَ ذلك ﴾[3] ونحو ذلك، وما نص الله على تحريمه فهو الحرام البين مثلُ قوله تعالى: ﴿ حُرِّمت عليكم أُمهاتُكم وبناتِكم ﴾[4] الآية. ﴿ وحُرِّمَ عليكم صيدُ البَرِ ما دمتم

(١) هو الإمام سليمان بن الأشعث الأزدي الحافظ، أحد أوعية العلم فقهاً وعلماً. توفي سنة ٢٧٥هـ.
(٢) سورة المائدة: ٥.
(٣) سورة النساء: ٢٤.
(٤) سورة النساء: ٢٣.

حرماً ﴾[١] وكتحريم الفواحش[٢] ما ظهر منها وما بطن وكل ما جعل الله فيه حداً أو عقوبة أو وَعيداً فهو حرام، وأما الشبهات فهي كل ما يتنازعه الأدلة من الكتاب والسنة وتجانبه المعاني فالإمساك عنه ورع.

وقد اختلف العلماء في المشتبهات التي أشار إليها النبي ﷺ في هذا الحديث فقالت طائفة: هي حرام لقوله استبرأ لدينه وعرضه قالوا ومن لم يستبرىء لدينه وعرضه فقد وقع في الحرام، وقال الآخرون هي حلال بدليل قوله ﷺ في الحديث: «كالراعي يرعى حول الحمى» فيدل على أن ذلك حلال وإن تركه ورع، وقالت طائفة أخرى المشتبهات المذكورة في هذا الحديث لا نقول أنها حلال ولا أنها حرام فإنه ﷺ جعلها بين الحلال البين والحرام البين فينبغي أن نتوقف عنها وهذا من باب الورع أيضاً.

وقد ثبت في حديث الصحيحين من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: (اختصم سعد بن أبي وقاص[٣] وعبد بن زمعة[٤] في غلام، فقال سعد: يا رسول الله هذا

---

(١) سورة المائدة: ٩٦.

(٢) الكبائر.

(٣) أحد العشرة المبشرين بالجنة، شهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، قائد فاتح بن قواد حامية الجبهة الشرقية. توفي بالمدينة سنة ٥٥هـ.

(٤) هو أخو السيدة سودة بنت زمعة إحدى زوجات الرسول ﷺ، كان من أجلاء الصحابة.

ابن أخي عتبة بن أبي وقاص عهد إليّ أنه ابنه أنظر إلى شبهه. وقال عبد بن زمعة هذا أخي يا رسول الله ولد على فراش أبي من وليدته فنظر رسول الله ﷺ فرأى شبهاً بيناً بعتبة فقال: «هو لك يا عبد بن زمعة الولد للفراش وللعاهر الحجر واحتجبي منه يا سودة»[١] فلم تره سودة قط. فقد حكم رسول الله ﷺ بالولد للفراش وأنه لزمعة على الظاهر، وأنه أخو سودة زوج النبي ﷺ لأنها بنت زمعة وذلك على سبيل التغليب، لا على سبيل القطع، ثم أمر سودة بالاحتجاب منه للشبه الداخلة عليه، فاحتاط لنفسه، وذلك من فعل الخائفين من الله عز وجل إذ لو كان الولد ابن زمعة في علم الله عز وجل لما أمر سودة بالاحتجاب منه كما لم يأمرها بالاحتجاب من سائر أخوتها عبد وغيره.

وفي حديث عدي بن حاتم[٢] أنه قال يا رسول الله إني أرسل كلبي وأسمي عليه فأجد معه على الصيد كلباً آخر قال: «لا تأكل إنما سميتَ على كلبك ولم تسم على غيره»[٣] فأفتاه رسول الله ﷺ بالشبهة أيضاً خوفاً من أن يكون الكلب الذي قتله غير مسمى عليه فكأنه أُهلَّ[٤] لغير

(١) متفق عليه.

(٢) عدي بن حاتم الطائي كان نصرانياً ثم أسلم عاش مائة وعشرين سنة توفي سنة ٦٨هـ.

(٣) رواه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي.

(٤) ذبح لغير اسم الله وهو حرام

الله به وقد قال الله تعالى في ذلك: ﴿وإنَّهُ لفسق﴾[(١)] فكان في فتياه ﷺ دلالة على الاحتياط في الحوادث والنوازل المحتملة للتحليل والتحريم لاشتباه أسبابها وهذا معنى قوله ﷺ: «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك»[(٢)]. وقال بعض العلماء: المشتبهات ثلاثة أقسام:

منها ما يعلم الإنسان أنه حرام ثم يشك فيه هل زال تحريمه أم لا، كالذي يحرم على المرء أكله قبل الذكاة[(٣)] إذا شك في ذكاته لم يزل التحريم إلا بيقين الذكاة والأصل في ذلك حديث عدي المتقدم ذِكْرُهُ.

وعكس ذلك أن يكون الشيء حلالاً فيشك في تحريمه، كرجل له زوجة فشك في طلاقها، أو أمةً فيشك في عتقها، فمن كان من هذا القسم فهو على الإباحة حتى يعلم تحريمه، والأصل في هذا حديث عبد الله بن زيد[(٤)] فيمن شك في الحديث بعد أن تيقن الطهارة.

القسم الثالث: أن يشك في شيء فلا يدري أحلال أم حرام ويحتمل الأمرين جميعاً، ولا دلالة على أحدهما، فالأحسن التنزه كما فعل النبي ﷺ في التمرة الساقطة حين

---

(١) سورة الأنعام ١٢١.

(٢) الترمذي والنسائي: (٣٢٧/٨، ٣٢٨) (٢٥٢٠).

(٣) بالذال الموحدة، وهو الذبح الشرعي.

(٤) متفق عليه.

وجدها في بيته فقال: «لولا أني أخشى أن تكون من الصدقة لأكلتها»(١).

وأما إن جوز نقيض ما ترجح عنده بأمر موهوم لا أصل له كترك استعمال ماء باق على أوصافه مخافة تقدير نجاسة وقعت فيه، أو كترك الصلاة في موضع لا أثر فيه مخافة أن يكون فيه بول قد جفَّ، أو كغسل ثوب مخافة اصابة نجاسة لم يشاهدها، ونحو ذلك فهذا يجب أن لا يلتفت إليه، فإن التوقف لأجل ذلك التجويز هَوَسٌ، والورع منه وسوسةُ الشيطان، إذ ليس فيه من معنى الشبهة شيء، والله أعلم.

وقوله ﷺ: «لا يعلمهن كثير من الناس» أي لا يعلم حكمهن من التحليل والتحريم، وإلا فالذي يعلم الشبهة يعلمها من حيث أنها مشكلة لترددها بين أمور محتملة، فإذا علم بأي أصل تلتحق زال كونها شبهة وكانت إما من الحلال، أو من الحرام، وفيه دليل على أن الشبهة لها حكم خاص بها عليه دليل شرعي يمكن أن يصل إليه بعض الناس.

وقوله ﷺ: «فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه» مما يشتبه.

---

(١) متفق عليه.

وأما قوله ﷺ: «ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام» فذلك يكون بوجهين أحدهما:

أن من لم يتقِ الله وتجرأ على الشبهات أفضت به إلى المحرمات. ويحمله التساهل في أمرها على الجرأة على الحرام كما قال بعضهم الصغيرة تجرُّ الكبيرة، والكبيرة تجرُّ الكفر وكما روي: (المعاصي بريد الكفر)[١].

الوجه الثاني: أن من أكثر من مواقعة الشبهات أظلم عليه قلبه، لفقدان نور العلم، ونور الورع، فيقع في الحرام وهو لا يشعر به، وقد يأثم بذلك إذا تسبب منه إلى تقصير. وقوله ﷺ «كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه» هذا مثل ضربه لمحارم الله عز وجل وأصله أن تكون العرب تحمي مراعي لمواشيها، وتخرج بالتوعد بالعقوبة إلى من قَرَّبها، فالخائف من عقوبة السلطان يبعد بماشيته عن ذلك الحمى، لأنه إن قرب منه فالغالب الوقوع فيه لأنه قد تنفرد الفذة[٢]، وتشذ الشاذة، ولا ينضبط، فالحذر أن يجعل بينه وبين ذلك الحمى مسافة يأمن فيها وقوع ذلك، وهكذا محارم الله عز وجل من القتل والربا والسرقة وشرب الخمر والقذف والغيبة والنميمة ونحو ذلك لا ينبغي أن يحوم حولها مخافة الوقوع فيها.

---

(١) قول مأثور. أراه سار مثلاً.

(٢) الواحدة من الماشية، ومذكرها: فذ.

«ويوشك» بكسر الشين مضارع أوشك بفتحها وهي من أفعال المقاربة، ويرتع: بفتح التاء معناها أكل الماشية من المرعى وأصله إقامتها فيه وبسطها في الأكل.

وقوله ﷺ: «ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله» الحديث.

المضغة: القطعة من اللحم وهي قدر ما يمضغه الماضغ يعني بذلك صغر جرمها[1] وعظيم قدرها، وصلحت رويناه بفتح العين[2]، والقلب في الأصل مصدر، وسمي به هذا العضو الذي هو أشرف الأعضاء لسرعة الخواطر فيه، وترددها عليه وأنشد بعضهم في هذا المعنى:

ما سُمِّيَ القلب إلاّ مِنْ تَقَلُّبِهِ
فاحذرْ على القلبِ مِنْ قَلْبٍ وتحويلِ

وخصَّ اللَّهُ تعالى جنسَ الحيوان بهذا العضو، وأوْدع فيه تنظيم المصالحَ المقصودة فتجد البهائم على اختلاف أنواعها تدرك به مصالحها، وتميِّز به مضارها من منافعها، ثم خصَّ اللَّهُ نوعَ الإنسان من سائر الحيوان بالعقل، وإضافة إلى القلب فقال تعالى: ﴿ **أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها** ﴾[3]

(١) حجمها.
(٢) عين الفعل صلح.
(٣) سورة الحج، الآية: ٤٦.

وقد جعل الله الجوارح مسخرةٍ له ومطيعة فما استقر فيه ظهر عليها وعملت على معناه إن خيراً فخير وإن شراً فشر فإذا فهمت هذا ظهر قوله ﷺ: «ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب» نسأل الله العظيم أن يصلح فساد قلوبنا، يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك يا مصرف القلوب صرف قلوبنا إلى طاعتك» [آمين].

الحديث السابع

النصيحـة

عن أبي رُقَيَّـةَ تَمِيمِ بنِ أَوْسٍ الـدَّاريِّ رضِي اللَّهُ عنه: أنَّ النَّبيَّ ﷺ قالَ:

«الـدِّينُ النَّصِيحَـةُ. قُلْنَا: لَمِنْ؟ قَال: للَّهِ، ولِكِتَابِهِ، ولِرَسُولِهِ، ولِأئِمةِ الـمُسْلِمِينَ، وعامَّتِهِم».

رَواهُ مُسْلِمٌ

ليس لتميم الداري رضي الله عنه غير هذا الحديث.
والنصيحة كلمة جامعة معناها: إرادة جملة الخير حيازة لحظ المنصوح له. وهي من وجيز الأسماء ومختصر الكلام وليس في كلام العرب كلمة مفردة يستوفى بها العبارة عن معنى هذه الكلمة، كما قالوا في الفلاح ليس في كلام العرب كلمة أجمع لخير الدنيا والآخرة منها.

ومعنى قوله: «الدين النصيحة» أي عماد الدين وقوامه النصيحة كقوله: «الحج عرفة»[1] أي عماده ومعظمه.

وأما تفسير النصيحة وأنواعها فقال الخطابي[2] وغيره من العلماء:

(١) وجدته: «الحج عرفات» أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٤/٣٣٥، أبو داود (١٩٤٩) في المناسك، باب من لم يدرك عرفة، الترمذي (٨٨٩) في الحج باب ما جاء فيمن أدرك الإمام و(٢٩٧٩) في تفسير سورة البقرة، والنسائي (٥/٢٥٦) في الحج. بابْ فرض الوقوف بعرفة، ابن ماجه (٣٠١٥) في المناسك، باب من أتى عرفة الحاكم ١/٤٦٤ وصححه.

(٢) هو أحمد بن محمد بن إبراهيم البستي فقيه محدث. توفي سنة ٣٨٨هـ.

النصيحة لله تعالى معناها منصرف إلى الإيمان به، ونفي الشرك عنه، وترك الإلحاد في صفاته، وووصفه بصفات الكمال والجلال كلها، وتنزيهه عن جميع النقائص، والقيام بطاعته، واجتناب معصيته، والحب فيه، والبغض فيه، وجهاد من كفر به، والاعتراف بنعمته، والشكر عليها، والاخلاص في جميع الأمور، والدعاء إلى جميع الأوصاف المذكورة، والحث عليها والتلطف بالناس. قال الخطابي: وحقيقة هذه الأوصاف راجعة إلى العبد في نصحه نفسه فإن الله سبحانه غني عن نصح الناصح.

وأما النصيحة لكتابه سبحانه وتعالى فبالإيمان بأن كلام الله تعالى وتنزيله لا يشبهه شيء من كلام الناس، ولا يقدر على مثله أحد من الخلق، ثم تعظيمه وتلاوته حق تلاوته، وتحسينها والخشوع عندها، وإقامة حروفه في التلاوة، والذب عنه لتأويل المحرفين، والتصديق بما فيه، والوقوف مع أحكامه، وتفهم علومه وأمثاله، والاعتبار بمواضعه والتفكر في عجائبه، والعمل بمحكمه، والتسليم لمتشابهه، والبحث عن عمومه، والدعاء إليه وإلى ما ذكرنا من نصيحته.

وأما النصيحةُ لرسوله ﷺ فتصديقه على الرسالة، والإيمان بجميع ما جاء به، وطاعته في أمره ونهيه،

ونصرته حياً وميتاً، ومعاداة من عاداه، وموالاة من والاه، وإعظام حقه، وتوقيره، وإحياء طريقته، وسنته، وإجابة دعوته، ونشر سنته، ونفي التهمة عنها، واستثارة علومها، والتفقه في معانيها، والدعاء إليها، والتلطف في تعليمها، وإعظامها واجلالها، والتأدب عند قراءتها، والإمساك عن الكلام فيها بغير علم، وإجلال أهلها لانتسابهم إليها، والتخلق بأخلاقه، والتأدب بآدابه، ومحبة أهل بيته وأصحابه، ومجانبة من ابتدع في سنته أو تعرض لأحد من أصحابه ونحو ذلك.

وأما النصيحة لأئمة المسلمين: فمعاونتهم على الحق، وطاعتهم، وأمرهم به، وتنبيههم وتذكيرهم برفق ولطف، واعلامهم بما غفلوا عنه، وتبليغهم من حقوق المسلمين برفق ولطف، وإعلامهم بما غفلوا عنه، وتبليغهم من حقوق المسلمين وترك الخروج عليهم بالسيف، وتأليف قلوب الناس لطاعتهم والصلاة خلفهم والجهاد معهم، وأن يدعو لهم بالصلاح.

وأما نصيحة عامة المسلمين وهم من عدا[1] ولاة الأمر، فإرشادهم لمصالحهم في آخرتهم ودنياهم، وإعانتهم عليها وستر عوراتهم وسد خلاتهم[2] ودفع المضار عنهم،

---

(١) أداة استثناء.

(٢) خلاتهم: جمع خلة بفتح الخاء وهي النقص، والثغرة (أنظر لسان العرب).

وجلب المنافع لهم، وأمرهم بالمعروف، ونهيهم عن المنكر، برفق وإخلاص، والشفقة عليهم، وتوقير كبيرهم، ورحمة صغيرهم، وتخولهم[١] بالموعظة الحسنة، وترك غشهم وحسدهم، وأن يحب بهم ما يحب لنفسه من الخير، ويكره لهم ما يكره لنفسه من المكروه، والذب عن أموالهم وأعراضهم، وغير ذلك من أحوالهم بالقول والفعل، وحثهم على التخلق بجميع ما ذكرناه من أنواع النصيحة، والله أعلم.

والنصيحة فرض كفاية إذا قام بها من يكفي سقط عن غيره، وهي لازمة على قدر الطاقة.

والنصيحة في اللغة: الاخلاص، يُقال نصحت العسل إذا صفيته قيل غير ذلك، والله أعلم.

(١) تعهدهم.

الحديث الثامن

حرمة المسلم

عن ابنِ عُمَـرَ رضي اللَّهُ عنهمـا: أنَّ رسولَ اللَّهِ ﷺ قال:

«أُمِرْتُ أنْ أُقاتِلَ النَّاسَ حتى يَشْهَدُوا أنْ لا إلَـهَ إلا اللَّهُ وأنَّ محمَّداً رسـولُ اللَّهِ، ويُقيمُوا الصَّلاَةَ، ويُؤْتُوا الزَّكاةَ، فإذَا فَعَلُوا ذلك عَصَمُوا منِّي دمَـاءَهُمْ وأمْـوَالَهُمْ إلا بِحَقِّ الإسـلاَم، وحِسَابُهُمْ على اللَّهِ تعالى».

رَواهُ البُخارِيُّ ومُسْلِمٌ

هذا حديث عظيم، وقاعدة من قواعد الدين، وقد روى هذا الحديث أنس وقال: «حتى يشهدوا أن لا إلّه إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، وأن يستقبلوا قبلتنا، وأن يأكلوا ذبيحتنا، وأن يصلوا صلاتنا، فإذا فعلوا ذلك حُرِّمت علينا دماؤهم وأموالهم إلا بحقها، لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين»[١]. وجاء في صحيح مسلم[٢] من رواية أبي هريرة «حتى يشهدوا أن لا إلّه إلا الله ويؤمنوا بي وبما جئت به» وذلك موافقة لرواية ابن عمر في المعنى.

وأما معاني هذا الحديث فقال العلماء بالسير:

لما توفي رسول الله ﷺ واستُخلِف أبو بكر الصديق رضي الله عنه بعده، وكفر من كفر من العرب، عزم أبو بكر على قتالهم وكان منهم من منع الزكاة ولم يكفر، وتأوَّل في ذلك، فقال له عمر رضي الله عنه: كيف تقاتل

(١) البخاري كتاب الإيمان ١٧.
(٢) ١/٣٢.

الناس وقد قالوا لا إله إلا الله، وقد قال رسول الله ﷺ «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله» إلى آخر الحديث فقال الصديق إن الزكاة حق المال، وقال: والله لو منعوني عناقا وفي رواية عقالاً كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعه فتابعه عمر على قتال القوم(١).

قوله: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فمن قال: لا إله إلا الله فقد عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه، وحسابه على الله». قال الخطابي وغيره والمراد بهذا أهل الأوثان ومشركو العرب، ومن لا يؤمن دون أهل الكتاب، ومن يقر بالتوحيد فلا يكفي في عصمته قوله: لا إله إلا الله إن كان يقولها في كفره، وهي من اعتقاده وكذاك جاء في الحديث الآخر «وأني رسول الله، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة». وقال الشيخ محيي الدين النووي: ولا بد مع هذا من الإيمان بجميع ما جاء به رسول الله ﷺ كما جاء في الرواية الأخرى لأبي هريرة «حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ويؤمنوا بين وبما جئت به».

ومعنى قوله: «وحسابهم على الله» أي فيما يسترونه ويخفونه دون ما يخلون به في الظاهر من الأحكام الواجبة ذكر ذلك الخطابي قال: وفيه أن من أظهر الإسلام وأسر

---

(١) صحيح مسلم ٣٨/١.

الكفر يقبل إسلامه في الظاهر وهذا قول أكثر أهل العلم. وذهب مالك[١] إلى أن توبة الزنديق لا تقبل وهي رواية عن الإمام أحمد.

وفي قوله: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إلّه إلا الله ويؤمنوا بي وبما جئت به» دلالة ظاهرة لمذهب المحققين والجماهير من السلف والخلف أن الإنسان إذا اعتقد دين الإسلام اعتقاداً جازماً لا تردد فيه كفاه ذلك ولا يجب عليه تعلم أدلة المتكلمين ومعرفة الله بها خلافاً لمن أوجب ذلك وجعله شرطاً في نجوٍّ أهل القبلة، وهذا خطأ ظاهر، فإن المراد التصديق الجازم، وقد حصل، ولأن النبي ﷺ اكتفى بالتصديق بما جاء به، ولم يشترط المعرفة بالدليل، وقد تظاهرت بهذا أحاديث في الصحيح، ويحصل بمجموعها التواتر بأصلها، والعلم القطعي، والله أعلم.

(١) مالك بن أنس بن مالك من أئمة السنة الجماعة، وصاحب مذهب معروف باسمه. توفي سنة ١٧٩هـ ودفن بالبقيع.

الحديث التاسع

لا تكليف إلا بقدر الاستطاعة

عن أبِي هُـرَيْرَةَ عَبْـدِ الرَّحمنِ بنِ صَخْـرٍ رضِي الله عنه قال: سمِعْتُ رسولَ اللَّهِ ﷺ يَقُوْلُ:

«ما نَهَيْتُكُمْ عنه فاجْتَنِبُوهُ، وما أَمَرْتُكُمْ به فأْتُوا منه ما اسْتَطَعْتُمْ، فإِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كثْرَةُ مَسَائِلِهِمْ واخْتِلافُهُمْ على أنْبِيَائِهِمْ».

رَواهُ البُخَارِيُّ ومُسْلِمٌ

لفظ هذا الحديث في كتاب مسلم[١] عن أبي هريرة قال: خطبنا رسول الله ﷺ فقال: «يا أيها الناس قد فرض الحج عليكم فحجوا» فقال رجل: كل عام يا رسول الله فسكت حتى قالها مراراً فقال رسول الله ﷺ «لو قلت نعم لوجبت ولما استطعتم» ثم قال: «ذروني ما تركتكم فإنما أهلك من كان قبلكم كثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه». والرجل الذي سأل هو الأقرع بن حابس[٢] كذا جاء مبيناً في غير هذه الرواية.

واختلف الأصوليون أن الأمر هل يقتضي التكرار فاختار أكثر الفقهاء والمتكلمين أنه لا يقتضي التكرار، وقال آخرون لا يحكم باقتضائه ولا منعه بل يتوقف فيما زاد

(١) ٧/٩١.

(٢) من سادات العرب في الجاهلية قدم على النبي ﷺ في وفد (من تميم) فأسلموا وشهد حنيناً وفتح مكة والطائف. توفي شهيداً بالجوزجان سنة ٣١هـ.

على مرة على البيان وهذا الحديث قد يستدل به من يقول بالتوقف فإنه سأل فقال أكلّ[١] عام ولو كان مطلقه يقتضي التكرار أو عدمه لم يقل له النبي ﷺ لا حاجة إلى السؤال بل مطلقة محمول على كذا، وأجمعت الأمة على أن الحج لا يجب في العمر إلا مرة واحدة بأصل الشرع.

وأما قوله: «ذروني ما تركتكم» فهو ظاهر في أن الأمر لا يقتضي التكرار ويدل هذا اللفظ أيضاً على أن الأصل عدم الوجوب وأنه لا حكم قبل ورود الشرع وهو الصحيح عند كثير من الأصوليين.

وقوله: «لو قلت نعم لوجبت» دليل للمذهب الصحيح في أنه ﷺ كان له أن يجتهد في الأحكام، وأنه لا يشترط في حكمه أن يكون بوحي.

قوله ﷺ: «فإذا أمرتكم بأمْرٍ فأتوا منه ما استطعتم» هذا من قواعد الإسلام المهمة ومما أوتيه ﷺ من جوامع الكلم، ويدخل فيه ما لا يحصى من الأحكام كالصلاة إذا عجز عن بعض أركانها أو بعض شروطها أتى بالباقي، وإذا عجز عن غسل بعض أعضاء الوضوء غسل الممكن، وكذلك إذا وجبت فطرة جماعة ممن يلزمه نفقتهم، وكذلك أيضاً في إزالة المنكرات إذا لم يمكنه إزالة جميعها فعل

---

(١) الألف استفهامية.

الممكن وأشباه ذلك مما لا ينحصر، وهو مشهور في كتب الفقه، وهذا الحديث كقوله تعالى: ﴿فاتقوا الله ما استطعتم﴾(١)، وأما قوله تعالى: ﴿فاتقوا الله حق تقاته﴾(٢) فقيل منسوخة بقوله: ﴿فاتقوا الله ما استطعتم﴾، قال بعضهم: والصحيح أنها ليست منسوخة بها بل هي مفسرة لها ومبينة للمراد منها، قالوا: وحق تقاته هو امتثال أمره واجتناب نواهيه والله سبحانه لم يأمر إلا بالمستطاع فإن الله تعالى قال: ﴿لا يكلف الله نفساً إلا وسعها﴾(٣) وقال تعالى: ﴿وما جعل عليكم في الدين حرج﴾(٤).

وأما قوله عليه الصلاة والسلام: «وما نهيتكم عن شيء فاجتنبوه» فهذا على اطلاقه لكن إن وجد عذر يبيحه كأكل الميتة عند الضرورة ونحوه فهذا لا يكون منهياً عنه في هذه الحال. وأما في غير حال العذر فلا يكون ممتثلاً لمقتضى النهي حتى يترك كل ما نهي عنه ولا يخرج عنه بترك فعل

(١) سورة التغابن: ١٦.
(٢) سورة آل عمران: ١٠٢. ولا أرى خلافاً بين الآيتين حتى نقول بنسخ الثانية، لأن الاستطاعة في الأولى غيرمحددة، ومعناها بذل المستطاع. وهذا هو الحق. وغير ذلك من المتكلف الخارج عن حدود: حق التقوى. وهي ثمرة يقين بالقلب تساويه أو لا تساويه.
(٣) سورة البقرة: ٢٨٦. وهذه أيضاً تدل على العزيمة لا على التراخي إذ لا يمكن للإنسان أن يفعل شيئاً فوق وسعه.
(٤) سورة الحج: ٧٨.

واحد بخلاف الأمر وهذا الأصل إذا فهم فهو مسألة (مطلق الأمر هل يحمل على الفور أو التراخي أو على المرة الواحدة أو التكرار)، ففي هذا الحديث أبواب من الفقه والله أعلم.

وقوله : «إنما أهلك الذين من قبلكم كثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم» وذكر ذلك بعد قوله: «ذروني ما تركتكم» أراد لا تكثروا السؤال فربما يكثر الجواب عليه فيضاهي ذلك قصة بني إسرائيل لما قيل لهم اذبحوا بقرة فإنهم لو اقتصروا على ما يصدق عليه اللفظ وبادروا إلى ذبح أي بقرة كانت اجزأت عنهم لكن لما أكثروا السؤال وشددوا شُدد عليهم وذُمُّوا على ذلك فخاف النبي ﷺ مثل ذلك على أمته.

الحديث العاشر

أكل الحلال

عن أَبِي هُرَيْرَةَ رضي اللَّهُ عنه قال: قال رسولُ اللَّهِ ﷺ:

«إنَّ اللَّهَ تعالى طَيِّبٌ لا يَقْبَلُ إلاّ طَيِّباً، وَإنَّ اللَّهَ أمَرَ الـمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ به الـمُرْسَلِينَ، فقالَ تعالى: ﴿ يا أيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطيِّبَاتِ واعمَلُوا صالحاً ﴾. وقالَ تعالى: ﴿ يا أيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ ما رَزَقْنَاكُمْ ﴾. ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أشْعَثَ أغْبَرَ، يَمُدُّ يَدَيْهِ إلى السَّمَاءِ يَا رَبُّ يا رَبُّ، ومَطْعَمُهُ حَرَامٌ، ومَشْرَبُهُ حَرَامٌ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ، وغُذِيَ بالحَرَامِ، فأنَّى يُسْتَجَابُ لَهُ».

رَواهُ مُسْلمٌ

قيل: الطيب في صفات الله بمعنى المنزه عن النقائص وهذا الحديث أحد الأحاديث التي عليها قواعد الإسلام ومباني الأحكام وفيه الحث على الانفاق من الحلال والنهي عن الانفاق من غيره وأن المأكول والمشروب والملبوس ونحوها ينبغي أن يكون حلالاً خالصاً لا شبهة فيه وإن من أراد الدعاء كان أولى بالاعتناء بذلك من غيره وفيه أن العبد إذا أنفق نفقة طيبة فهي التي تزكو وتنمو وأن الطعام اللذيذ غير المباح يكون وبالاً على آكله ولا يقبله الله.

وقوله: «ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر» إلى آخره معناه والله أعلم. يطيل السفر في وجوه الطاعات لحج وجهاد وغير ذلك من وجوه البر ومع هذا. فلا يستجاب له لكون مطعمه ومشربه وملبسه حرام فكيف بمن هو منهمك في الدنيا أو في مظالم العباد أو من الغافلين عن أنواع العبادات والخير.

وقوله: «يمد يديه» عن مخالفة وعصيان.

قوله: «وغذي بالحرام» هو بضم الغين وتخفيف الذال المكسورة.

وقوله: «فأني يستجاب له» يعني من أين يستجاب لمن هذه صفته فإنه ليس أهلاً للإجابة لكن يجوز أن يستجيب الله تعالى له تفضلاً ولطفاً وكرماً والله أعلم.

الحديث الحادي عشر

الـورع

عن أبي محمدٍ الحَسَنِ بنِ عَلِيٍّ بنِ أبي طـالِبٍ ـ سِبْطِ رســولِ اللَّهِ ﷺ وريحــانتِــه رضِيَ اللَّهُ عنهُمَا، قال:

حفظتُ منْ رسولِ اللَّهِ ﷺ: «دَعْ ما يَرِيبُكَ إلى ما لا يَرِيبُكَ».

رَواهُ التِّرْمِذِيُّ والنَّسائِيُّ، وقال الترمذيُّ: حديثٌ حسَنٌ صَحِيحٌ.

قوله: يريبك يروى بفتح الياء وضمها والفتح أفصح وأشهر ويجوز الضم يقال رابني الشيء وأرابني ومعناه: اترك ما شككت فيه واعدل إلى ما لا تشك فيه وهذا راجع إلى معنى الحديث السادس وهو قوله: الحلال بين والحرام بين وبينهما أمور مشتبهات وقد جاء في حديث آخر أن النبي ﷺ قال: «لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يترك ما لا بأس به مخافة ما به بأس»[١] وهذه درجة أعلى من تلك.

(١) الترمذي برقم (٢٤٥٣) قريباً منه.

الحديث الثاني عشر

يترك المسلم ما لا يعنيه

عن أَبِي هُرَيْرَةَ رضِي اللَّهُ عنه، قال: قالَ رسُولَ اللَّهِ ﷺ:

«مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرءِ تَرْكُهُ ما لا يَعْنِيهِ».

حديثٌ حَسَنٌ رواهُ التِّرْمِذِيُّ وغَيرُهُ هَكَذا.

وقد رواه ابن عبد الرحمن عن الزهري عن أبي سلمة عن أبي هريرة وصحح طرقه ثم قال في هذا الحديث: هذا من الكلام الجامع للمعاني الكثيرة الجليلة في الألفاظ القليلة ونحو ذلك قول أبي ذر في بعض حديثه: ومن حسب كلامه من عمله قل كلامه إلا فيما يعنيه.

وذكر مالك أنه بلغه أنه قيل للقمان: ما بلغ بك ما نرى، ـ يريدون الفضل ـ فقال: «صدق الحديث، وأداء الأمانة، وترك ما لا يعنيني».

وروي عن الحسن قال: «من علامة إعراض الله تعالى عن العبد أن يجعل شغله فيما لا يعنيه».

وقال أبو داود أصول السنن في كل فن أربعة أحاديث ذكر منها هذا الحديث.

الحديث الثالث عشر

المحبة

عن أبي حَمْزَةَ أَنَس ِ بنِ مالكٍ رضِي اللَّهُ عنه ـ خادِم ِ رسول ِ الله ﷺ ـ عن النَّبيِّ ﷺ قال:

«لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حتى يُحِبَّ لأخِيهِ ما يُحِبُّ لِنَفْسِهِ».

رَواهُ البُخاريُّ ومُسْلِمٌ

هكذا جاء في صحيح البخاري لأخيه من غير شك وجاء في صحيح مسلم حتى يحب لأخيه أو لجاره على الشك.

قال العلماء: يعني لا يؤمن من الإيمان التام وإلا فأصل الإيمان يحصل لمن لم يكن بهذه الصفة.

والمراد يحب لأخيه من الطاعات والأشياء المباحات ويدل عليه ما جاء في رواية النسائي حتى يحب من الخير ما يحب لنفسه. قال الشيخ أبو عمرو بن الصلاح وهذا قد يعد من الصعب الممتنع، وليس كذلك إذ معناه لا يكمل إيمان أحدكم حتى يحب لأخيه في الإسلام ما يحب لنفسه والقيام بذلك يحصل بأن يحب له حصول مثل ذلك من جهة لا يزاحمه فيها بحيث لا ينقص عليه شيء من النعمة وذلك سهل قريب على القلب السليم، وإنما يعسر على القلب الداغل[1] عافانا الله تعالى واخواننا أجمعين.

(١) الفاسد.

وقال أبو الزناد[١] ظاهر هذا الحديث التساوي وحقيقته التفضيل لأن الإنسان يحب أن يكون أفضل الناس فإذا أحب لأخيه مثله فقد دخل هو في جملة المفضولين، ألا ترى أن الإنسان يحب أن ينتصف من حقه ومظلمته فإن كمل إيمانه وكان لأخيه عنده مظلمة أو حق بادر إلى إنصافه من نفسه، وإن كان عليه فيه مشقة.

ويحكى أن الفضيل بن عياض[٢] قال لسفيان بن عيينة[٣]: إن كنت تريد أن يكون الناس مثلك فما أديت لله الكريم النصيحة فكيف وأنت تود أنهم دونك.

وقال بعض العلماء: في هذا الحديث من الفقه أن المؤمن مع المؤمن كالنفس الواحدة فينبغي له أن يحب ما يحب لنفسه من حيث إنها نفس واحدة كما جاء في الحديث الآخر «المؤمنون كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر»[٤].

(١) عبد الله بن ذكوان القرشي محدث. توفي سنة ١٣١هـ.
(٢) بن مسعود التيمي الزاهد أحد أئمة الهدى والسنة قال الزاهد المجاهد عبد الله بن المبارك: أورع من رأيت فضيل بن عياض توفي بمكة سنة ١٨٧هـ.
(٣) أحد الأئمة. توفي سنة ١٩٨هـ.
(٤) البخاري ومسلم.

الحديث الرابع عشر

متى يهدر دم المسلم

عَن ابنِ مسعودٍ رضِي اللَّهُ عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ:

«لا يَحِلُّ دَمُ امْرِىءٍ مُسْلِمٍ إلاّ بإحْدَى ثَلاَثٍ: الثَّيِّبُ الزَّانِي، والنَّفْسُ بالنَّفْسِ، والتَّـارِكُ لدِينِهِ المُفَارِقُ لِلْجَمَاعَةِ.

رَواهُ البُخَارِيُّ ومُسْلِمٌ

وفي بعض الروايات المتفق عليها(*) «لا يحل دم امرىء مسلم يشهد أن لا إلّه إلا الله وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاث» فقوله: «يشهد أن لا إلّه إلا الله وأني رسول الله» كالتفسير لقوله مسلم وكذا قوله: «المفارق للجماعة» كالتفسير لقوله: «التارك لدينه» وهؤلاء الثلاثة مباحوا الدم بالنص والمراد بالجماعة «المسلمون» وإنما فراقهم بالردة عن الدين وهي سبب لإباحة دمه.

وقوله: التارك لدينه المفارق للجماعة عام في كل مرتد عن الإسلام بأي ردة كانت فيجب قتله إن لم يرجع إلى الإسلام.

قال العلماء: ويتناول أيضاً كل خارج عن الجماعة ببدعة أو بغي أو غيرهما، والله أعلم إن هذا عام يخص منه الصائل ونحوه فيباح قتله في الدفع, وقد يجاب عن هذا بأنه داخل في المفارق للجماعة ويكون المراد لا يحل

(*) راوي الحديث تقدمت ترجمته في ص (٦٣).

تعمد قتله قصداً إلا في هؤلاء الثلاثة، والله أعلم.

وقد استدل بعضهم على أن تارك الصلاة يقتل لتركها لأن تاركها يسمى من هذه الثلاثة وفي هذه المسألة خلاف بين العلماء منهم من يكفّر تارك الصلاة، ومنهم من لا يكفره، واستدل بعض من يكفره بالحديث الآخر وهو قوله ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إلّه إلا الله وأني رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة»[١] قال فوجه الدليل أنه وقف العصمة على مجموع الشهادتين وأقام الصلاة وإيتاء الزكاة، والمرتب على الأشياء لا يحصل إلا بمجموعها وينتفي بانتفائها وهذا إن قصد به الاستدلال بالمنطوق وهو قوله: «أمرت أن أقاتل الناس...» إلخ فإنه يقتضي الأمر بالقتال إلى هذه الغاية فقد ذهل وسها لأنه فرقٌ بين المقاتلة على الشيء، والقتل عليه، فإ المقاتل مفاعلة يقتضي الحصول من الجانبين ولا يلزم من إيجاب المقاتلة على الصلاة القتل عليها إذا تركها من غير أن يقاتلنا، والله أعلم.

وقوله: «الثيب الزاني» هو المحصن ويدخل فيه الذكر والأنثى وهو حجة على ما اتفق المسلمون من أن حكم الزاني الرجم بشروطه المذكورة في أبواب الفقه.

وقوله: «النفس بالنفس» موافق لقوله تعالى: ﴿ وكتبنا

(١) السابق ذِكرهُ.

عليهم فيها أن النفس بالنفس﴾[١] ويعني به النفوس المتكافئة في الإسلام والحرية بدليل قوله ﷺ: «لا يقتل مسلم بكافر»[٢] وكذلك الحرية في المكافآة عند مالك، والشافعي، وأحمد، وذهب أصحاب الرأي إلى أن المسلم يُقتل بالذمي، وأن الحر يقتل بالعبد، وقد يستدلون بهذا الحديث والجمهور على خلاف ذلك.

(١) سورة المائدة، الآية: ٤٥.
(٢) رواه البخاري.

الحديث الخامس عشر

آداب المؤمنين

عن أبي هُـرَيْـرَةَ رضِي اللَّهُ عنـه: أنَّ رسُولَ اللَّهِ ﷺ قال:

«مَنْ كانَ يُؤْمِنُ باللَّهِ والْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْراً أوْ لِيَصْمُتْ، ومَنْ كانَ يُؤْمِنُ باللَّهِ والْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ جارَهُ، ومَنْ كانَ يُؤْمِنُ باللَّهِ والْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ».

رَواهُ البُخاريُّ ومُسْلِمٌ

قوله: «ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر» يعني من كان يؤمن الإيمان الكامل[١] المنجي من عذاب الله الموصل إلى رضوان الله فليقل خيراً أو ليصمت لأن من آمن بالله حق إيمانه خاف وعيده ورجا ثوابه، واجتهد في فعل ما أمر به وترك ما نهي عنه، وأهم ما عليه من ذلك ضبط جوارحه التي هي رعاياه وهو مسؤول عنها كما قال تعالى:

﴿ إن السَّمعَ والبَصَرَ والفُؤادَ كلُّ أولئكَ كانَ عنْهُ مسؤولاً ﴾

وقال تعالى: ﴿ ما يلفظُ مِنْ قولٍ إلاَّ لديهِ رقيبٌ عتيدٌ ﴾[٣] وآفات اللسان كثيرة[٤]، ولذلك قال النبي ﷺ: «وهل يُكبُّ الناسَ في النار على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم»[٥]. وقال ﷺ: «كلُّ كلام ابن آدم عليه إلا ذكر الله تعالى وأمر بمعروف ونهي عن منكر»[٦]. فمن علم ذلك وآمن به حق إيمانه اتقى الله في لسانه فلا يتكلم إلا بخير أو يسكت.

قال بعض العلماء: جماع آداب الخير يتفرع من أربعة أحاديث ذكر منها قوله ﷺ: « منْ كانَ يؤمنُ بالله واليوم

---

(١) حسب المبدأ القائل: الإيمان يزداد وينقص.

(٢) ورة الإسراء: ٣٦.

(٣) سورة ق: ١٨.

(٤) وقد أفرد لها الغزالي في كتابه «إحياء علوم الدين» جزءًا كبيراً خاصاً أسماه الربع المهلكات وفيه من المواعظ والعبر ما يجعل المرء يكفُّ عن الكثير من آفات اللسان.

(٥) وهو الحديث ٢٩ من هذه الأربعين. انظره.

(٦) رواه الترمذي وابن جحه.

الآخر فليقل خيراً أو ليصمت».

قال أهل اللغة: يقال صمت يصمت بضم الميم صمتاً وصموتاً وصماتاً.

وقال بعضهم في معنى هذا الحديث: إذا أراد الإنسان أن يتكلم فإن كان ما يتكلم به خيراً محققاً يُثاب عليه فليتكلم، وإلا فليمسك عن الكلام سواء ظهر أنه حرام أو مكروه أو مباح، فعلى هذا يكون الكلام المباح مأموراً بتركه، مندوباً إلى الإمساك عنه مخافة أن ينجر إلى المحرم أو المكروه، وقد يقع ذلك كثيراً قال الله تعالى: ﴿**ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد**﴾[1].

واختلف العلماء في أنه هل يكتب على الإنسان جميع ما يلفظ به، وإن كان مباحاً أو لا يكتب عليه إلا ما فيه الجزاء من ثواب أو عقاب، وإلى القول الثاني ذهب ابن عباس[2] وغيره فعلى هذا تكون الآية الكريمة مخصوصة أي ما يلفظ من قول يترتب عليه جزاء.

---

(١) قال مجاهد وغيره: يكتبان كل شيء، حتى أنينه في مرضه، وقال عكرمة: لا يكتبان إلا ما يؤجر عليه وي«زر، والقرآن يدل على أنهما يكتبان الجميع، فإنه قال: ﴿ما يلفظ من قول﴾ نكرة في الشرط مؤكدة بحرف (من) فهذا يعمم كل قوله، الفتاوى (٧/٤٨ - ٥١) وانظر كتابي: تفسير سورة (ق).

(٢) ستأتي ترجمته في الحديث.

وقوله ﷺ: «فليكرم جاره فليكرم ضيفه» فيه تعريف لحق الجار والضيف وبرهما وحث على حفظ الجوارح وقد أوصى الله تعالى في كتابه بالاحسان إلى الجار، وقال ﷺ: «ما زال جبريل عليه السلام يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه»[1] والضيافة من الإسلام وخلق النبيين والصالحين. وقد أوجبها بعض العلماء وأكثرهم على أنها من مكارم الأخلاق. وقال صاحب الافصاح[2] في هذا الحديث من الفقه: أن يعتقد الإنسان أن إكرام الضيف عبادة لا ينقصها أن يضيف غنياً، ولا يعيرها أن يقدم إلى ضيفه اليسير مما عنده فإكرامه أن يسارع إلى البشّ، في وجهه ويطيب الحديث له، وعماد أمر الضيافة إطعام الطعام، فينبغي أن يبادر بما فتح الله من غير كلفة وذكر كلامه إلى آخره ثم قال: وأما قوله فليقل خيراً أو ليصمت، فإنه يدل على أن قول الخير خير من الصمت، والصمت خير من قول الشر، وذلك أنه أمره بلام الأمر لقول الخير وبدأبه على الصمت، ومن قول الخير الابلاغ عن الله تعالى، وعن رسول الله ﷺ، وتعليم المسلمين، والأمر بالمعروف عن علم، وإنكار المنكر عن علم، والاصلاح بين الناس، وأن يقول للناس حسناً، ومن أفضل الكلمات كلمة حق عند من يخاف ويرجى في ثبات وسداد.

(١) البخاري (١٠/٣٦٩، ٣٧٠)، مسلم (٢٦٢٤، ٢٦٢٥).
(٢) ابن هبيرة الوظر المتوفي سنة ٥٦٠هـ. (أنظر ص ٥٥).

الحديث السادس عشر

لا تغضب

عن أبي هُرَيْرَةَ رضِي اللّٰهُ عنه ، أنَّ رَجُلًا قال لِلنَّبيِّ ﷺ: أوْصِني قالَ:

«لا تَغْضَبْ» فَرَدَّدَ مِرَاراً قال: «لا تَغْضَبْ».

رَواهُ البُخَارِيُّ

قال صاحب الافصاح[1]: من الجائز أن النبي ﷺ علم من هذا الرجل كثرة الغضب فخصه بهذه الوصية، وقد مدح النبي ﷺ الذي يملك نفسه عند الغضب فقال: «ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الشدائد»[2]. ومدح الله تعالى: ﴿ الكاظمين الغيظ والعافين عن الناس ﴾[3]. وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «من كظم غيظه وهو يستطيع أن ينفذ دعاه الله عز وجل على رؤوس الخلائق يوم القيامة حتى يخيره من الحور ما شاء»[4]

---

(١) سبق ذكر مؤلفه ص (٥٤) وهو الافصاح عن معاني الصحاح، لابن هبيرة، ويحتوي بين دفتيه شرح معاني أحاديث صحيحي البخاري ومسلم.

(٢) البخاري (١٠/٤٣١)، مسلم (٢٦٠٩).

(٣) بقيتها: ﴿ والعافين عن الناس ﴾ سورة آل عمران ١٣٤.

(٤) رواه أبو داود برقم (٤٧٧٧)، والترمذي (٢٠٢٢) و(٢٤٩٥) وقال حديث حسن، وأخرجه ابن ماجه برقم (٤١٨٦) وبلفظ «وهو قادر» عوضاً عن «وهو يستطيع».

وقد جاء في الحديث «إن الغضب من الشيطان»[١] ولهذا يخرج به الإنسان من اعتدال حاله ويتكلم بالباطل ويرتكب المذموم، وينوي الحقد والبغضاء وغير ذلك من القبائح المحرمة، ذلك هو الغضب أعاذنا الله منه. وقد جاء في حديث سليمان بن صرد[٢] «أن الإستعاذة بالله من الشيطان الرجيم تذهب الغضب»[٣] وذلك أن الشيطان هو الذي يزين الغضب وكل ما لا تحمد عاقبته فيغويه ويبعده عن رضى الله عز وجل فالاستعاذة بالله منه من أقوى السلاح على دفع كيده.

---

(١) أنظر البخاري (٦/٢٤٢)، ومسلم (٢٦١٠).

(٢) بن الجون، صحابي من الزعماء القادة، شهد المواقع مع سيدنا علي، وكاتب الحسين لكنه تخلف عنه، ثم خرج مطالباً بدمه متزأساً خمسة آلاف من «التوابون» الذين قعدوا عن نصرة الحسين، استشهد سنة ٦٥هـ.

(٣) الحديث بأكمله متفق عليه: البخاري (٦/٢٤٢)، مسلم (٢٦١٠).

الحديث السابع عشر

الإحسـان

عن أبي يَعْلَى شَـدَّادِ بْنِ أَوْسٍ رضِي اللَّهُ عنه، عن رسولِ اللَّهِ ﷺ، قال:

«إنّ اللَّهَ كَتَبَ الإِحْسَانَ على كلِّ شَيْءٍ، فإذا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقَتْلَةَ، وإذا ذَبَحْتُمْ فأَحْسِنُوا الذِّبْحَةَ، ولْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ ولْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ». رواهُ مُسْلمٌ

القِتلة بكسر القاف. والذِبحة بكسر الذال ويضم. وقد جاء في بعض روايات هذا الحديث: «فَأحسنوا الذبح» بغير هاء وهو بالفتح مصدر وبالهاء والكسر الهيئة والحالة.

وقوله: «وليُحد أحدكم شفرته» هو بضم الياء من حد يقال أحد السكين وحددها واستحدها.

قوله: «فأحسنوا القتلة» عام في القتل من الذبائح والقتل قصاصاً أو في حد ونحو ذلك.

وهذا الحديث من الأحاديث الجامعة لقواعد كثيرة ومعنى إحسان القتل أن يجتهد في ذلك ولا يقصد التعذيب. وإحسان الذبح في البهائم أن يرفق بالبهيمة ولا يصرعها بغتة، ولا يجرها من موضع إلى موضع، وأن يوجهها إلى القبلة ويسمي، ويجهد، ويقطع الحلقوم والودجين[1] ويتركها إلى أن تبرد، والاعتراف إلى الله

(١) وهكذا نرى أن للذبح شروطاً حتى تكون تذكيته شرعية لا بد للذابح من معرفتها، وهي مدونة في كتب الفقه في جميع المذاهب الإسلامية.

تعالى بالمنة والشكر على نعمه، فإنه سبحانه سخر لنا ما لو شاء لسلطه علينا، وأباح لنا ما لو شاء لحرمه علينا.

الحديث الثامن عشر

من آداب الإسلام

عن أبي ذرٍّ جُنْدُبِ بنِ جُنَادَةَ، وأبي عَبْدِ الرَّحمنِ مُعَاذِ بنِ جَبَلٍ رضِي اللَّهُ عنهما، عن رسولِ اللَّهِ ﷺ قال:

«إتَّقِ اللَّهَ حَيْثُمَا كُنْتَ، وَأَتْبعِ السَّيِّئَةَ الحَسَنَةَ تَمْحُهَا، وخالِقِ النَّاسَ بخُلُقٍ حَسَنٍ».

رَواهُ التِّرْمِذِيُّ وقال حديثٌ حَسَنٌ، وفي بَعْض النُّسَخِ: حَسَنٌ صَحِيحٌ.

مناقب أبي ذر كثيرة، أسلم ورسول الله ﷺ بمكة أمره أن يلحق بقومه، فلما رأى حرصه على المقام معه بمكة وعلم أنّه لا يقدر على ذلك[1] قال له ﷺ: «اتق الله حيثما كنت، واتبع السيئة الحسنة تمحها» وهذا موافق لقوله تعالى: ﴿ إنَّ الحسنات يذهبن السيئات ﴾[2] وقوله: «وخالق الناس بخلق حسن» معناه عامل الناس بما تحب أن يعاملوك به واعلم أن أثقل ما يوضع في الميزان الخلق الحسن. وقال رسول الله ﷺ: «إن أحبكم إلي وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً»[3] وحسن الخلق

---

(١) يحلو للكثيرين صبغ الفكر الإسلامي الرباني بحياة أبي ذر وآرائه وطريقته في الحياة لغايات في أنفسهم إما لدعم آرائهم غير الإسلامية أصلاً لعدم اعترافهم بالدين كمنهج متكامل أصلاً، أو للنيل من بعض الصحابة الكرام والذين نؤمن بأنهم عدول بأجمعهم دون استثناء، إضافة إلى مدحهم من الله عز وجل بآيات كثيرة وبأسمائهم العامة.

(٢) سورة هود، الآية: ١١٤.

من صفات النبيين والمرسلين وخيار المؤمنين لا يجزون بالسيئة السيئة بل يعفون ويصفحون ويحسنون مع الإساءة إليهم.

الحديث التاسع عشر

من جوامع الكلم

عن أبي العَبَّاس عَبْدِ اللَّهِ بنِ عَبَّاس رَضِي اللَّهُ عنهُمَا، قال: كُنْتُ خَلْفَ النَّبيِّ ﷺ يَوْماً، فقال:

«يا غُلَامُ إنِّي أعَلِّمُكَ كَلِماتٍ: احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَك، إذا سألْتَ فاسأَلِ اللَّهَ، وإذَا اسْتَعَنْتَ فاستَعِنْ باللَّهِ، واعْلَمْ أنَّ الأمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ على أنْ يَنْفَعُوكَ بشَيءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إلّا بِشَيْءٍ قدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وإنِ اجْتَمَعُوا على أن يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إلّا بِشَيْءٍ قد كَتَبَهُ اللَّهُ علَيْكَ، رُفِعَتِ الأَقْلَامُ وجَفَّتِ الصُّحُفُ.

روَاهُ التِّرْمِذِيُّ وقال: حديثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ، وفِي

رِوَايَةِ غَيْرِ التِّرْمِذِيِّ.

«احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ أَمَامكَ، تَعَرَّفْ إِلى اللَّهِ في الرَّخاءِ يَعْرِفْكَ في الشِّدةِ، واعْلَمْ أنَّ ما أخْطَأكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ، وما أصابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئكَ، واعْلَمْ أنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ، وأَنَّ الْفَرَجَ مَعَ الْكَرْبِ، وأَنَّ مَعَ الْعُسْر يُسْراً».

مناقب عبد الله بن عباس رضي الله عنه أكثر من أن تحصر وقد دعا له النبي ﷺ فقال «اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل»(١) ودعا له بأن يؤتى الحكمة مرتين(٢) وثبت عنه أنه رأى جبريل مرتين(٣) وهو بحر هذه الأمة وحبرها وقد رآه رسول ﷺ أهلاً للوصية مع صغره فقال له: «احفظ الله يحفظك» ومعناه كن مطيعاً لربك مؤتمراً بأوامره منتهياً عن نواهيه.

وقوله: «احفظ الله تجده تجاهك» أي أعمل له بالطاعة ولا يراك في مخالفته فإنك تجده تجاهك في الشدائد كما جرى للثلاثة الذين أصابهم المطر فآووا إلى غار فانحدرت صخرة فانطبقت عليهم، فقالوا انظروا ما عملتم من الأعمال الصالحة فأسألوا الله تعالى بها فإنه ينجيكم فذكر

(١) أخرجه البغوي في شرح السنة تحقيق: (أرنؤوط ـ الشاويش).
(٢) وقد رواه البخاري عن ابن عباس قال: ضمني النبي ﷺ إلى صدره وقال: «اللهم علمه الحكمة».
(٣) رواه الترمذي.

كل واحد منهم سابقة سبقت له مع ربه فانحدرت عنهم الصخرة فخرجوا يمشون، وقصتهم مشهورة في الصحيح[١].

وقوله ﷺ: «إذا سألت فأسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله» أرشده إلى التوكل على مولاه وأن لا يتخذ ربا سواه ولا يتعلق بغيره في جميع أموره ما قل منها وما كثر. وقال الله تعالى: ﴿ومن يتوكل على الله فهو حسبه﴾[٢] فبقدر ما يركن الشخص إلى غير الله تعالى بطلبه أو بقلبه أو بأمله فقد أعرض عن ربه بمن لا يضره ولا ينفعه وكذلك الخوف من غير الله وقد أكد النبي ﷺ ذلك فقال: «واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك» وكذلك في الضر وهذا هو الإيمان بالقدر والإيمان به. واجب خيره وشره وإذا تيقن المؤمن هذا فما فائدة سؤال غير الله والاستعانة به وكذلك إجابة الخليل عليه الصلاة والسلام جبريل عليه السلام حين سأله وهو في الهوي[٣]: (ألك حاجة) قال: (أما إليك فلا)[٤].

---

(١) البخاري (٤/٣٤٠، ٣٦٩، ٥/١٢، ٦/٣٦٧، ١٠/٣٣٨)، مسلم برقم (٢٧٤٣).

(٢) سورة الطلاق: ٣.

(٣) الهبوط والنزول دون واسطة بسرعة.

(٤) تاريخ الطبري وابن كثير، وفي «قصص الأنبياء» وتجده مفصلاً =

وقوله: «رفعت الأقلام وجفت الصحف» هذا تأكيد أيضاً لما تقدم أي لا يكون خلاف لما ذكرت لك بنسخ ولا تبديل.

قال: «واعلم أن النصر مع الصبر وأن الفرج مع الكرب وأن مع العسر يسراً» فنبهه على أن الإنسان في الدنيا ولا سيما الصالحون معرضون للمصائب لقوله عز وجل: ﴿ **ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع** ﴾ الآيات إلى قوله: ﴿ **وأولئك هم المهتدون** ﴾[1] وقال تعالى: ﴿ **إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب** ﴾[2].

= بأسلوب عذب جميل في قصص الأنبياء وفي كتاب حياة وأخلاق الأنبياء طبع «دار اقرأ».

(١) سورة البقرة: (١٥٥ - ١٥٧)، وتمامها ﴿ **ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين * الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون * أولئك عليه صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون** ﴾.

(٢) سورة الزمر: ١٠.

الحديث العشرون

الحياءُ

عن أبي مَسْعُودٍ عُقْبَةَ بنِ عَمْروٍ الأَنْصَارِيّ الْبَدْرِيِّ رضِي اللّهُ عنه، قال: قال رسولُ اللّهِ ﷺ:

«إنَّ مِمَّا أدْرَكَ النَّاسُ مِنْ كلَامِ النُبُوَّةِ الأولى إذا لَمْ تَسْتَحِ فاصْنَعْ ما شِئْتَ».

رَواهُ البُخارِيُّ

معنى قوله(*) «من كلام النبوة الأولى» أن الحياء لم يزل ممدوحاً مستحسناً مأموراً به لم ينسخ في شرائع الأنبياء الأولين.

وقوله: «فاصنع ما شئت» فيه وجهان أحدهما: أن يكون خرج بلفظ الأمر على معنى الوعيد والتهديد ولم يرد به الأمر كقوله: ﴿ اعملوا ما شئتم ﴾[١] فإنه وعيد لأنه قد بين لهم ما يأتون به وما يتركون. وكقول النبي ﷺ: «من باع الخمر فليشقص[٢] الخنازير»[٣]. لم يكن في هذا إباحة تشقيص الخنازير. الوجه الثاني: أن معناه ما لم يستحيا منه إذا ظهر فافعله ونحو هذا قوله ﷺ: «الحياء من

(*) راوي الحديث: سيدنا عقبة بن عمرو بن ثعلبة الأنصاري عده البخاري وابن شهاب وابن سحاق فيمن شهد غزوة بدر توفي سنة ٤٠هـ.

(١) سورة فصلت: ٤٠.

(٢) أي: فليقطعها قطعاً.

(٣) أي: من باع الخمر فليكن للخنازير قصاباً.

الإيمان» معناه أنه لما كان يمنع صاحبه من الفواحش ويحمل على البر والخير كما يمنع الإيمان صاحبه من ذلك ويحمله على الطاعات صار بمنزلة الإيمان لمساواته له في ذلك، والله أعلم.

الحديث الحادي والعشرون

الإيمان والاستقامة

عَنْ أبي عَمْرٍو وقِيلَ أبي عَمْرَةَ، سُفْيَانَ بنِ عَبْـدِ اللَّهِ رضِي اللَّهُ عنــه، قـال قُلْتُ: يـا رسولَ اللَّهِ، قُلْ لِي في الإِسْلامِ قَوْلاً لا أَسْأَلُ عنه أحَداً غَيْرَكَ. قالَ:

«قُلْ آمَنْتُ باللَّهِ ثُمَّ اسْتَقِم».

رَواهُ مُسْلِمٌ

معنى قوله «قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً غيرك أي: علمني قولاً جامعاً لمعاني الإسلام واضحاً في نفسه بحيث لا يحتاج إلى تفسر غيرك اعمل عليه وأتقي به فأجابه ﷺ بقوله: «قل آمنت بالله ثم استقم».

هذا من جوامع الكلم التي أوتيها ﷺ فإنه جمع لهذا السائل في هاتي الكلمتين معاني الإسلام والإيمان كلها، فإنه أمره أن يجدد إيمانه بلسانه متذكراً بقلبه وأمره أن يستقيم على أعمال الطاعات، والانتهاء عن جميع المخالفات، إذ لا تتأتى الاستقامة مع شيء من الاعوجاج، فإنها ضده وهذا كقوله تعالى: ﴿ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا ﴾[1] الآية أي آمنوا بالله وحده ثم استقاموا على ذلك وعلى الطاعة إلى أن توفوا عليها. قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: (استقاموا لله على طاعته ولم يروغوا روغان الثعلب). ومعناه اعتدلوا على

(١) سورة فصلت، الآية: ٣٠.

أكثر طاعة الله عقداً وقولاً وفعلاً وداموا على ذلك وهذا معنى قول أكثر المفسرين وهي معنى الحديث إن شاء الله تعالى.

وكذلك قوله سبحانه: ﴿ فاستقم كما أمرت ﴾[١] قال ابن عباس ما نزل على رسول الله ﷺ في جميع القرآن آية كانت أشق عليه من هذه الآية. وكذلك قال ﷺ: «شيبتني هود وأخواتها»[٢].

قال الأستاذ أبو القاسم القشيري رحمه الله تعالى: (الاستقامة درجة بها كمال الأمور وتمامها، وبوجودها حصول الخيرات ونظامها ومن لم يكن مستقيماً في حال سعيه ضاع سعية وخاب جده)[٣]. قال وقيل: الاستقامة لا يطيقها إلا الأكابر لأنها الخروج عن المعهودات. ومفارقة الرسوم والعادات، والقيام بين يدي الله تعالى على حقيقة الصدق، ولذلك قال النبي ﷺ: «استقيموا ولن تحصوا» وقال الواسطي: الخصلة التي بها كملت المحاسن وبفقدها قبحت المحاسن: الاستقامة، والله أعلم.

---

(١) سورة هود: ١١٢.

(٢) الترمذي في الشمائل ٤١.

(٣) بمعنيين: الخط، أو الكد في العمل.

الحديث الثاني والعشرون

طريق الجنـة

عن أبي عَبْـدِ اللَّهِ جـابِـرِ بنِ عَبْـدِ الـلَّهِ الأَنْصَارِيِّ رضِي اللَّهُ عنهُمَا:

«أنَّ رَجُلاً سَأَلَ رسولَ اللَّهِ ﷺ فقالَ: أرَأيْتَ إذا صلَّيْتُ المُكْتُوْباتِ، وصُمْتُ رَمَضَانَ، وأحْلَلْتُ الحَلال، وحَرَّمْتُ الحَرَامَ، ولَمْ أزِدْ على ذلك شيئاً، أأدْخُلُ الجَنَّةَ؟ قال: نَعَمْ».

رَواهُ مُسْلمٌ. ومَعْنَى حَرَّمْتُ الحَرَامَ: اجْتَنَبْتُهُ. ومَعْنَى أَحْلَلْتُ الحَلاَلَ: فَعَلْتُهُ مُعْتَقِداً حِلَّهُ.

هذا الرجل السائل هو النعمان بن قوقل[١] بقافين. قال الشيخ أبو عمر بن الصلاح رحمه الله تعالى الظاهر أنه أراد بقوله: وحرمت الحرام أمرين أحدهما: أن يعتقد كونه حراماً، والثاني: ألا يفعله بخلاف تحليل الحلال، فإنه يكفي فيه مجرد اعتقاده حلالاً.

قال صاحب المفهم لم يذكر النبي ﷺ للسائل في هذا الحديث شيئاً من التطوعات على الجملة، وهذا يدل على جواز ترك التطوعات على الجملة، لكن من تركها ولم يعمل شيئاً فقد فوَّت على نفسه ربحاً عظيماً وثواباً جسيماً، ومن داوم على ترك شيء من السنن كان نقصاً في دينه، وقدحاً في عدالته، فإن كان تركه تهاوناً ورغبة عنها كان

(١) النعمان بن قوقل بن أحرم شهد بدراً وكان من شهداء أحد وأخرج البغوي في «شرح السنة» أن النعمان قال: أقسمت عليك يا رب أن لا تغيب الشمس حتى أطأ بعرجتي في خضر الجنة، فقال رسول الله ﷺ: «لقد رأيته يطأ فيها وما به من عرج».

ذلك فسقاً يستحق به ذماً. قال علماؤنا: لو أن أهل بلدة تواطؤوا على ترك سنة لقوتلوا عليها حتى يرجعوا، ولقد كان صدر الصحابة رضي الله عنهم ومن بعدهم يثابرون على فعل السنن والفضائل مثابرتهم على الفرائض ولم يكونوا يفرِّقون بينهما في اغتنام ثوابها.

وإنما احتاج أئمة الفقهاء إلى ذكر الفرق لما يترتب عليه من وجوب الإعادة وتركها وخوف العقاب على الترك ونفيه إن حصل ترك بوجه ما. وإنما ترك النبي ﷺ تنبيهه على السنن والفضائل تسهيلاً وتيسيراً لقرب عهده بالإسلام، لئلا يكون الإكثار من ذلك تنفيراً له، وعلم أنه إذا تمكن في الإسلام وشرح الله صدره رغب فيما رغب فيه غيره، أو لئلا يعتقد أن السنن والتطوعات واجبة فتركه لذلك.

وكذلك في الحديث الآخر أن رجلاً سأل النبي ﷺ عن الصلاة فأخبر أنها خمس فقال هل علي غيرها قال لا إلا أن تطوع ثم سأل عن الصوم والحج والشرائع فأجابه ثم قال في آخر ذلك والله لا أزيد على هذا ولا أنقص منه فقال: «أفلح ان صدق»[١]. وفي رواية «إن تمسك بما أمر به دخل الجنة».

وإنما شرعت لتتميم الفرائض. فهذا السائل والذي قبله

(١) أي: صدق في قوله.

إنما تركهما النبي ﷺ تسهيلاً عليهما إلى أن تنشرح صدورهما بالفهم عنه والحرص على تحصيل المندوبات فيسهل عليهما.

وهذا يسمى بمحافظته على فرائضه وإقامتها والإتيان بها في أوقاتها من غير إخلال بها فلاحاً كثير الفلاح والنجاح ويا ليتنا وفّقنا كذلك ومن أتى بالفرائض واتبعها بالنوافل كان أكثر فلاحاً منه.

الحديث الثالث والعشرون

جامع الخيرات

عَنْ أَبِي مَالِكٍ الحَارِثِ بن عَاصِمٍ الأَشْعَرِيّ رضِي اللَّهُ عنهُ، قال: قال رسولُ اللَّهِ ﷺ:

«الطُّهُورُ شَطْرُ الإِيمَانِ، والحَمْدُ للَّهِ تَمْلأُ المِيزَانَ، وسُبْحَانَ اللَّهِ والحمدُ للَّهِ تَمْلآنِ - أو تَمْلأُ - ما بَيْنَ السَّماءِ والأرضِ، والصَّلاَةُ نُورٌ، والصَّدَقَةُ بُرْهانٌ، والصَّبْرُ ضِيَاءٌ، والْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أو عَلَيْك. كلُّ النَّاسِ يَغْدو فَبائعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا أو مُوبِقُهَا».

رَواهُ مُسْلِمٌ

هذا الحديث أصل من أصول الإسلام وقد اشتمل على مهمات سن قواعد الإسلام والدين.

أما الطّهور: فالمراد به هنا الفعل وهو بضم الطاء على المختار، واختلف في معناه فقيل: إن الأجر فيه ينتهي إلى نصف أجر الإيمان، وقيل: المراد بالإيمان هنا الصلاة قال تعالى: ﴿وما كانَ اللَّهُ لِيضيعَ إيمانكم﴾[1] والطهارة شرط في صحة الصلاة فصارت كالشطر ولا يلزم في الشطر أن يكون نصفاً حقيقياً وقيل غير ذلك.

وأما قوله: «والحمد لله تملأ الميزان» فمعناه عظم أجرها تملأ ميزان الحامد لله تعالى وقد تظاهرت نصوص القرآن والسنة على وزن الأعمال وثقل الموازين وخفتها.

وكذلك قوله «وسبحان الله والحمد لله يملآن أو تملأ ما بين السموات والأرض» وسبب عظم فضلها ما اشتملت عليه من التنزيه لله تعالى والافتقار إليه.

(١) سورة البقرة: ١٤٣.

وقوله «تملآن أو تملأ» ضبطه بعضهم بالتاء المثناة فوق وهو صحيح، فالأول ضمير مثنى والثاني ضمير هذه الجملة من الكلام. وقال بعضهم: يجوز يملآن: بالتذكير والتأنيث أما التأنيث فعلى ما تقدم وأما التذكير فعلى ما أراد النوعين من الكلام وأما تملأ فيذكر على إرادة الذكر.

وأما قوله ﷺ «والصلاة نور» فمعناه أنها تمنع من المعاصي، وتنهى عن الفحشاء والمنكر وتهدي إلى الصواب كما أن النور يستضاء به، وقيل معناه أن يكون آخرها نوراً لصاحبها يوم القيامة وقيل إنها تكون نوراً ظاهراً على وجهه يوم القيامة ويكون في الدنيا أيضاً على وجهه البهاء بخلاف من لم يصل، والله أعلم.

وأما قوله ﷺ: «الصدقة برهان» فقال صاحب التجريد[١]: معناه أنه يفزع إليها كما يفزع للبراهين، كأن العبد إذا سئل يوم القيامة عن مصرف ماله؟ كانت له صدقاته براهين في جواب هذا السؤال فيقول: تصدقت به، وقال غيره: معناه أن الصدقة حجة على إيمان فاعلها لأن المنافق يمتنع منها لكونه لا يعتقدها فمن تصدق استدل بصدقته على قوة إيمانه، والله أعلم.

وأما قوله ﷺ: «والصبر ضياء» فمعناه الصبر المحبوب

---

(١) إبراهيم بن أحمد الخواص أحد كبار الصوفيين في عصره ولد في سر من رأى (سامراء اليوم) وتوفي سنة ٢٩١ هـ.

في الشرع وهو الصبر على طاعة الله تعالى، والصبر عن معصيته، والصبر أيضاً على النائبات، وأنواع المكاره في الدنيا، والمراد أن الصبر محمود لا يزال صاحبه مستضيئاً به ومهتدياً مستمراً على الصواب. قال إبراهيم الخواص: الصبر هو الثبات على الكتاب والسنة. وقيل الصبر هو الوقوف مع البلاء بحسن الأدب. وقال أبو علي الدقاق رحمه الله: الصبر أن لا يعترض على المقدور فأما إظهار البلاء على وجه الشكوى فلا ينافي الصبر قال الله تعالى في حق أيوب عليه السلام ﴿ إنا وجدنا صابراً نعم العبد أنه أواب ﴾(١) مع أنه قال: ﴿ إني مسني الضر ﴾(٢) والله أعلم.

وقوله: «كل الناس يغدو فبايع نفسه فمعتقها أو موبقها» معناه إن كل إنسان يسعى لنفسه فمنهم من يبيعها لله بطاعته له فيعتقها من العذاب كما قال الله تعالى: ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ﴾(٣) ومن يبيعها للشيطان والهوى باتباعها فيوبقها أي يهلكها، اللهم وفقنا للعمل بطاعتك وجنبنا أن نوبق أنفسنا بمخالفتك.

---

(١) سورة ص: ٤٤.
(٢) سورة الأنبياء: ٨٣.
(٣) سورة التوبة: ١١١.

الحديث الرابع والعشرون

كما تفعل تجد

عن أبي ذَرّ الْغِفـارِيِّ رضِي الله عنـه، عنِ النبيِّ ﷺ فيما يَرْوِيه عَنْ رَبِّهِ عَزَّ وجَلَّ أنَّهُ قال:

«يا عِبَادِي، إنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ على نَفْسِي، وجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّماً، فلا تَظَالَمُوا. يا عِبادِي، كُلُّكُمْ ضالٌّ إلا مَنْ هَدَيْتُهُ فاسْتَهْدُونِي أهْدِكُمْ. يا عِبادِي، كُلُّكُمْ جائعٌ إلاَّ مَنْ أطْعَمْتُهُ، فاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ. يا عِبادِي، كُلُّكُم عارٍ إلاّ مَنْ كَسَوْتُهُ، فاسْتكْسونِي أكْسُكُمْ. يا عِبادِي، إنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بـالليْلِ والنَّهـارِ وأنا أغْفِـرُ الـذُّنُـوبَ جَمِيعـاً، فاسْتَغْفِرُونِي أغفِرْ لكُمْ. يا عِبادِي، إنَّكُمْ لنْ تَبْلُغُوا ضُرِّي فَتضُرُّونِي، ولنْ تبْلُغُوا نفْعِي فَتَنْفَعُونِي. يا

عِبادِي، لوْ أنَّ أوَّلكُمْ وآخِرَكُمْ وإنْسكُمْ وجنَّكُمْ كانُوا على أتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ واحدٍ مِنْكُمْ ما زادَ ذلك في مُلكِي شَيْئاً. يا عِبادِي، لوْ أنَّ أوَّلَكُمْ وآخِرَكُمْ وإنْسَكُمْ وجِنَّكُمْ كانُوا على أفجرِ قَلْبِ رَجُلٍ واحدٍ مِنْكُم ما نَقَصَ ذَلِك مِنْ مُلْكِي شَيْئاً. يا عِبادِي، لوْ أنَّ أوَّلَكُمْ وآخِرَكُمْ وإنْسَكُمْ وجِنَّكُمْ قامُوا في صَعِيدٍ واحدٍ فَسَأَلُونِي فأَعْطَيْتُ كلَّ واحدٍ مَسْأَلَتَهُ ما نَقَصَ ذلك مِمَّا عِنْدِي إلا كما يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إذا أُدْخِلَ الْبَحْرَ. يا عِبادِي، إنَّمَا هِيَ أَعْمَالكُمْ أُحْصِيها لَكُمْ ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إيَّاهَا. فَمَنْ وَجَدَ خيْراً فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ، ومَنْ وَجَدَ غيرَ ذلك فلاَ يَلومَنَّ إلاّ نَفْسَهُ».

رَواهُ مَسْلمٌ

قوله: «إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً» قال بعض العلماء معناه لا ينبغي لي ولا يجوز علي كما قال تعالى: ﴿ وما يَنْبغي للرحمن أنْ يتَّخِذَ ولداً ﴾ (١) فالظلم محال في حق الله تعالى. قال بعضهم في هذا الحديث: لا يسوغ لأحد أن يسأل الله تعالى أن يحكم له على خصمه إلا بالحق لقوله سبحانه: ﴿ إني حرَّمت الظلم على نفسي ﴾ فهو سبحانه لا يظلم عباده فكيف يظن ظان أنه يظلم عباده لغيره.

وكذلك قال: «فلا تظالموا» المعنى المظلوم يقتص له من الظالم وحذفت إحدى التائين تخفيفاً أصله فلا تتظالموا.

وقوله: «كلكم ضال إلا من هديته وكلكم عار إلا من كسوته وكلكم جائع إلا من أطعمته» تنبيه على فقرنا وعجزنا عن جلب منافعنا، ودفع مضارنا إلاَّ أن يعيننا الله

(١) سورة مريم: ٩٢.

سبحانه على ذلك، وهو يرجع إلى معنى لا حول ولا قوة إلا بالله، وليعلم العبد أنه إذا رأى آثار هذه النعمة عليه أن ذلك من عند الله ويتعين عليه شكر الله تعالى، وكل ما ازداد من ذلك يزيد في الحمد والشكر لله تعالى.

وقوله: «فاستهدوني أهدكم» أي اطلبوا مني الهداية أهدكم والجملة في ذلك أن يعلم العبد أنه طلب الهداية من مولاه فهداه، ولو هداه قبل أن يسأله لم يبعد أن يقول: إنما أوتيته على علم عندي وكذلك: «كلكم جائع» إلى آخره يعني أنه خلق الخلق كلهم ذوي فقر إلى الطعام فكل طاعم كان جائعاً حتى يطعمه الله بسوق الرزق إليه، وتصحيح الآلات التي هيأها فلا يظن ذو الثروة أن الرزق الذي في يده، وقد رفعه إلى فيه أطعمه إياه أحد غير الله تعالى، وفيه أيضاً أدب للفقراء كأنه قال لا تطلبوا الطعام من غيري فإن هؤلاء الذين تطلبون منهم أنا الذي أطعمهم فاستطعموني أطعمكم، وكذلك ما بعده.

وقوله «إنكم تخطئون بالليل والنهار» في هذا الكلام من التوبيخ ما يستحي منه كل مؤمن، وكذلك أن الله خلق الليل ليطاع فيه ويعبد بالاخلاص حيث تسلم الأعمال فيه غالباً من الرياء والنفاق، أفلا يستحي المؤمن أن لا ينفق الليل فيما خلق له من الطاعة حتى يخطىء فيه ويعصي الله تعالى في مواطنه، وأما النهار فإنه خلق مشهوداً من

الناس فينبغي من كل فطن أن يطيع الله فيه أيضاً ولا يتظاهر بين الناس بالمخالفة وكيف يحسن بالمؤمن أن يخطىء سراً أو جهراً لأنه سبحانه وتعالى قد قال بعد ذلك: « **وأنا أغفر الذنوب جميعاً** » فذكر الذنوب بالألف واللام التي للتعريف وأكدها بقوله: جميعاً، وإنما قال ذلك قبل أمره إيانا بالاستغفار لئلا يقنط أحد من رحمه الله لعظم ذنب ارتكبه.

قوله: «يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وأنسكم وجنكم» إلى آخره فيه ما يدل على أن تقوى المتقين رحمة لهم وأنها لا تزيد في ملكه شيئاً.

وأما قوله «لو أن أولكم وآخركم وانسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد» إلى آخره ففيه تنبيه الخلق على أن يعظموا المسألة، ويوسعوا الطلب ولا يقتصر سائل ولا يختصر طالب، فإن ما عند الله لا ينقص، وخزائنه لا تنفذ فلا يظن ظان أن ما عند الله يغيضه الانفاق كما قال ﷺ في الحديث الآخر: «يد الله ملأى لا يغيضها نفقة، سحاء الليل والنهار، أفرأيتم ما أنفق ربكم منذ خلق السموات والأرض فإنه لم يغض ما في يمينه»(١) وسر ذلك أن قدرته صالحة للإيجاد دائماً لا يجوز عليها عجز ولا قصور والممكنات لا تنحصر ولا تتناهى.

(١) وكلتا يديه يمين سبحانه وتعالى.

وقوله: «إلا كما ينقص المخيط إذا دخل البحر» هذا مثل قصد به التقريب إلى الإفهام بما تشاهده، والمعنى: أن ذلك ما ينقص مما عنده شيئاً، والمخيط بكسر الميم وإسكان الخاء وفتح الياء هو الابرة.

وقوله : «إنما هي أعمالكم» إلى قوله: «فمن وجد خيراً فليحمد الله» يعني لا يحسب طاعته وعبادته من عمله لنفسه بل يسندها إلى التوفيق ويحمد الله على ذلك.

وقوله «ومن وجد غير ذلك» لم يقل ومن وجد شراً يعني ومن غير الأفضل فلا يلومن إلا نفسه أكد ذلك بالنون تحذيراً أن يخطر في قلب عامل أن اللوم تستحقه غير نفسه، والله أعلم.

الحديث الخامس والعشرون

من طرق الخير

عن أبي ذَرٍّ رضِي اللَّهُ عنه أيْضاً: «أنَّ ناساً مِنْ أصْحَابِ رسولِ اللَّهِ ﷺ قالوا لِلنَّبِي ﷺ يا رسولَ اللَّهِ، ذهَبَ أهْلُ الدُّثُورِ بالأُجُورِ، يُصَلُّونَ كما نُصَلِّي، ويَصُومُونَ كما نَصُومُ، وَيَتَصَدَّقُونَ بِفُضُولِ أَمْوَالِهِم. قال:

«أوَ لَيْسَ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ ما تَصَّدَّقُونَ: إنَّ لَكُمْ بِكُلِّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةً، وكلِّ تَكْبِيرَةٍ صَدَقَةً، وكلِّ تَحْمِيدةٍ صَدَقَةً، وكلِ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةً، وأمْرٍ بالمَعْرُوفِ صَدَقَة، ونَهْيٍ عنْ مُنْكَرٍ صَدَقَةً، وفي بُضْعِ أحَدِكُمْ صَدَقَةً». قالُوا: يا رسولَ اللَّهِ، أيَأْتِي أحَدُنا شَهْوَتَهُ ويَكُونُ لهُ فِيها أجْرٌ؟ قال:

«أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا في حَرَامٍ أكانَ عليه وِزْرٌ؟ فكذلك إذا وَضَعَهَا في الحَلالِ كانَ لهُ أجْرٌ».

رَواهُ مُسْلِمٌ

الدُثور: بضم الدال جمع دثر وبفتحها وهو المال الكثير.

وقوله: «أوليس قد جعل الله لكم ما تصدقون» الرواية فيه بتشديد الصاد والدال جميعاً ويجوز في اللغة تخفيف الصاد.

وفي هذا الحديث فضيلة التسبيح وسائر الأذكار والأمر بالمعروف. والنهي عن المنكر وإحضار النية في المباحات، وإنما تصير طاعات بالنيات الصادقات.

وفيه دليل على جواز سؤال المستفتي عن بعض ما يخفى من الدليل إذا علم من حال المسؤول أنه لا يكره ذلك ولم يكن فيه سوء أدب وذكر العالم الدليل على بعض ما يخفى من المسائل.

وقوله «وأمر بالمعروف صدقة ونهي عن المنكر صدقة» إشارة إلى ثبوت حكم الصدقة في كل فرد من أفراد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر آكد منه في التسبيح وما ذكر بعده لأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض كفاية

وقد يتعين بخلاف الأذكار التي تقع نوافل وأجر الفرائض أكثر من أجر النفل كما دل عليه قوله عزوجل»: ﴿ **وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه** ﴾[١] رواه البخاري، قال بعض العلماء يزيد ثواب الفرض على ثواب النفل سبعين درجة واستأنس له بحديث.

وأما قوله ﷺ «في بضع أحدكم صدقة» وهو بضم الباء ويطلق على الجماع وعلى الفرج نفسه وكلاهما يصح إرادته ها هنا، وقد تقدم أن المباحات تصير بالنيات طاعات فالجماع يكون عبادة إذا نوى به الإنسان قضاء حق الزوجة ومعاشرتها بالمعروف، أو طلب ولد صالح، أو عفاف نفسه، أو زوجته، أو غير ذلك من المقاصد الصالحة.

وقولهم: «يا رسول الله أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر قال أرأيتم لو وضعها في الحرام أكان عليه وزر» إلى آخره فيه جواز القياس وهو مذهب العلماء ولم يخالف فيه إلا أهل الظاهر، وأما المنقول من التابعين ونحوهم من ذم القياس فليس المراد به القياس الذي يعهده الفقهاء المجتهدون، وهذا القياس هو قياس العكس واختلف الأصوليون في العمل به، والحديث دليل لمن عمل به.

(١) في الحديث القدسي.

الحديث السادس والعشرون

عن أبي هُرَيْرَةَ رضِي اللَّهُ عنه قال: قال رسولُ اللَّهِ ﷺ:

«كُلُّ سُلاَمَي مِنَ النَّاسِ عليه صَدَقَةٌ، كل يَوْمٍ تَطْلُعُ فِيهِ الشَّمْسُ: تَعْدِلُ بَيْنَ اثْنَيْنِ صَدَقَةٌ، وتُعين الرَّجُلَ في دَابَّتِهِ فَتَحْمِلُهُ عليها أو تَرْفَعُ لَهُ عليها مَتَاعَهُ صَدَقَةٌ، والْكَلِمةُ الطَّيِّبَةُ صَدَقَةٌ، وبِكُلِّ خَطْوَةٍ تَمشِيها إلى الصَّلاَةِ صَدَقَةٌ، وتُمِيطُ الأذَى عنِ الطَّرِيقِ صَدَقَةٌ».

رَواهُ البُخَارِيُّ ومُسْلِمٌ

قوله: «سلامي» بضم السين المهملة وتخفيف اللام وهي المفاصل والأعضاء وقد ثبت في صحيح مسلم أنها ثلاثمائة وستون، قال القاضي عياض[١]: وأصله عظام الكف والأصابع والأرجل ثم استعمل في سائر عظام الجسد ومفاصله.

قال بعض العلماء: المراد صدقة ترهيب وترغيب لا إيجاب وإلزام.

قوله: «تعدل بين الاثنين صدقة» أن يصلح بينهما بالعدل، وفي حديث آخر من رواية مسلم «يصبح على كل سلامي من أحدكم صدقة فكل تسبيحة صدقة وكل تحميدة وتهليلة صدقة وكل تكبيرة صدقة وأمر بالمعروف صدقة ونهي عن المنكر صدقة يجزىء من ذلك ركعتان يركعهما

(١) عياض بن موسى بن عياض اليحصبي الأندلسي، إمام أهل الحديث في المغرب. له «الشفا بتعريف حقوق المصطفى» وغيره، توفي بمراكش سنة ٤٤ هـ.

من الضحى» أي يكفي من هذه الصدقات عن هذه الأعضاء ركعتان فإن الصلاة عمل لجميع أعضاء الجسد فإذا صلى فقد قام كل عضو بوظيفته والله أعلم.

الحديث السابع والعشرون

البِّر . . . والإثم

عن النَّوَّاسِ بن سَمْعَانَ رضِي اللَّهُ عنه، عن النَّبيّ ﷺ قال:

«الْبِرُّ حُسْنُ الخُلُقِ، والإِثْمُ ما حاك في نَفْسِك وكَرِهْتَ أنْ يَطَّلِعَ عليه النَّاسُ».

رَواهُ مُسْلِمٌ. وعن وابِصَةَ بنِ مَعَبدٍ رضِي اللَّهُ عنه قال: أتَيْتُ رسولَ اللَّهِ ﷺ فقالَ: «جِئْتَ تَسْأَلُ عن ٱلْبِرِّ؟ قُلْتُ: نَعَمْ. قال: اسْتفْتِ قَلْبَكَ، البرُّ ما اطْمَأَنَّتْ إليهِ النَّفسُ واطْمَأَنَّ إليهِ الْقَلْبُ، والإِثْمُ ما حاكَ في النَّفْسِ وتَرَدَّدَ في الصَّدْرِ، وإنْ أفْتاكَ النَّاسُ وأَفْتَوْكَ».

حديث حَسَنٌ رَوَيْنَاهُ في مُسْنَدَي الإمَامَيْنِ أحمدَ بنِ حَنْبَلٍ والدَّارِميِّ بإسْنَادٍ حَسَنٍ.

قوله ﷺ: «البر حسن الخلق» يعني أن حسن الخلق أعظم خصال البر كما قال: «الحج عرفة»[١]. أما البر فهو الذي يبر فاعله ويلحق بالأبرار وهم المطيعون لله عز وجل. والمراد بحسن الخلق: الانصاف في المعاملة، والرفق في المحاولة، والعدل في الأحكام، والبذل والاحسان، وغير ذلك من صفات المؤمنين الذين وصفهم الله تعالى فقال: ﴿ إنّما المؤمنون الذين إذا ذُكروا الله وجلت قلوبهم ﴾ إلى قوله: ﴿ أولئك هم المؤمنون حقاً ﴾[٢]، وقال تعالى: ﴿التائبون العابدون الحامدون ﴾ إلى قوله: ﴿ وبشر المؤمنين ﴾[٣] وقال: ﴿ قد أفلح المؤمنون ﴾ إلى قوله: ﴿ أولئك هم الوارثون ﴾[٤] ﴿ وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً ﴾[٥] إلى

(١) رواه أحمد وأصحاب السنن وابن حبان والحاكم.
(٢) سورة الأنفال: ٢ - ٤ وتمامها.
(٣) سورة التوبة: ١١٢ وتمامها.
(٤) سورة المؤمنون: ١ - ١٠.
(٥) سورة الفرقان: ٦٣.

آخر السورة فمن أشكل عليه حاله فليعرض نفسه على هذه الآيات فوجود جميعها علامة حسن الخلق وفقد جميعها علامة سوء الخلق ووجود بعضها دون بعض يدل على البعض دون البعض فليشتغل بحفظ ما وجده وتحصيل ما فقده.

ولا يظن ظان أن حسن الخلق عبارة عن لين الجانب وترك الفواحش والمعاصي فقط، وأن من فعل ذلك فقد هذّب خلقه، بل حسن الخلق ما ذكرناه من صفات المؤمنين والتخلق بأخلاقهم.

ومن حسن الخلق احتمال الأذى فقد ورد في الصحيحين: إن أعرابياً جذب بردي النبي ﷺ حتى أثرت حاشيته في عاتق النبي ﷺ وقال: يا محمد مر لي من مال الله الذي عندك فالتفت إليه رسول الله ﷺ ثم ضحك وأمر له بعطاء.

وقوله: «الإثم ما حاك في نفسك وكرهت أن يطلع عليه الناس» يعني هو الشيء الذي يورث نفرة في القلب وهذا أصل يتمسك به لمعرفة الاثم من البر أن يحوك في الصدر ويكره صاحبه أن يطلع عليه الناس، والمراد بالناس والله أعلم أماثلهم ووجوههم لا رعائهم حينئذ[1] هو الاثم فيتركه والله أعلم.

الحديث الثامن والعشرون

وصية جامعة

عن أبي نَجِيحٍ الْعِرْبَاضِ بنِ سارِيَةَ رضِي اللَّهُ عنه قال: وعَظَنَا رسولُ اللَّهِ ﷺ مَوْعِظَةً وَجِلَتْ مِنها الْقُلُوبُ، وذَرفَتْ منها الْعُيُوْنُ. فَقُلْنَا: يا رسولَ اللَّهِ، كأنَّهَا مَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ فأَوْصِنَا. قال:

«أوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، والسَّمْعِ والطَّاعَةِ، وإنْ تَأَمَّرَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ، فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسَيَرَى اخْتِلافاً كَثِيراً. فَعَلَيكُمْ بِسُنَّتِي وسُنَّةِ الخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ المَهْدِيِّينَ عَضُّوا عليها بالنَّوَاجِذِ، وإيَّاكُمْ ومُحْدَثاتِ الأُمورِ، فإنّ كلَّ بِدْعَةٍ ضَلاَلَةٌ».

رَواهُ أبُو دَاوُدَ والتِّرْمِذِيُّ وقال حديثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

وفي بعض طرق هذا الحديث «إن هذه موعظة مودع فماذا تعهد إلينا قال لقد تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك»(١).

قوله: «موعظة بليغة» يعني بلغت إلينا وأثرت في قلوبنا و«وجلت منها القلوب». أي خافت وذرفت منها العيون كأنه قام مقام تخويف ووعيد.

وقوله «أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة» يعني لولاة الأمور وأن تأمر عليكم عبد وفي بعض الروايات عبد حبشي. قال بعض العلماء: العبد لا يكون والياً ولكن ضرب به المثل على التقدير وإن لم يكن كقوله ﷺ: «من بنى لله مسجداً كمفحص قطاة بنى الله له بيتاً في الجنة»(٢) ومفحص قطاة لا يكون مسجداً ولكن الأمثال يأتي فيها مثل ذلك. ويحتمل أن النبي ﷺ أخبر بفساد الأمر ووضعه في

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده.
(٢) ابن حبان في مسنده.

غير أهله حتى توضع الولاية في العبد فإذا كانت فاسمعوا وأطيعوا تغليباً لأهون الضررين وهو الصبر على ولاية من لا تجوز ولايته لئلا يفضي إلى فتنة عظيمة.

وقوله: «وإنَّه من يعشْ منكم فسيرى اختلافاً كثيراً» هذا من بعض معجزاته ﷺ أخبر أصحابه بما يكون بعده من الاختلاف وغلبة المنكر وقد كان عالماً به على التفصيل ولم يكن بينه لكل أحد إنما حذر منه على العموم وقد بين ذلك لبعض الآحادِ كحذيفة[1] وأبي هريرة وهو دليل على عظم محلهما ومنزلتهما.

وقوله: «فعليكم بسنتي» السنة: الطريقة القويمة التي تجري على السنن وهو السبيل الواضح، وسنة الخلفاء الراشدين المهديين يعني الذين شملهم الهدى وهم الأربعة بالأجماع أبو بكر وعمر وعثمان وعليّ رضي الله عنهم أجمعين.

وأمره ﷺ بالثبات على سنة الخلفاء الراشدين لأَمْرَين: أحدهما: التقليد لمن عجز عن النظر.

والثاني: الترجيح لما ذهبوا إليه عند اختلاف الصحابة.

---

(١) حذيفة بن اليمان صحابي جليل أعلمه النبي ﷺ بما كان وما يكون إلى يوم القيامة من الفتن والحوادث توفي سنة ٣٦هـ (أنظر كتابي أحاديث سيد المرسلين عن حوادث القرن العشرين.

وقوله: «وإياكم ومحدثات الأمور» اعلم أن المحدث على قسمين:

محدث ليس له أصل في الشريعة فهذا باطل مذموم.

ومحدث بحمل النظير على النظير فهذا ليس بمذموم لأن لفظ المحدث ولفظ البدعة لا يذمان لمجرد الاسم بل لمعنى المخالفة للسنة والداعي إلى الضلالة ولا يذم ذلك مطلقاً فقد قال الله تعالى: ﴿ **ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث** ﴾[1] وقال عمر رضي الله عنه «نعمت البدعة هذه» يعني: التراويح.

وأما النواجذ فهي آخر الأضراس، والله أعلم.

(١) سورة الأنبياء: ٢.

الحديث التاسع والعشرون

ما يُدخل الجنة

عنِ مُعاذِ بنِ جَبَلٍ رضِي اللَّهُ عنه، قال: قُلْتُ: يا رسولَ اللَّهِ، أَخْبِـرْنِي بِعَمَلٍ يُـدْخِلُني الجنَّةَ ويُبَاعِدُني عنِ النَّارِ، قال:

«لَقَدْ سَأَلْتَ عن عَظِيمٍ، وإنَّهُ لَيَسيرٌ على مَنْ يَسَّرَهُ اللَّهُ تعالى عليه: تَعْبُدُ اللَّهَ لا تُشْرِكُ به شيئاً، وتُقيمُ الصَّلاَةَ، وتُؤْتي الزَّكاةَ، وتَصُومُ رَمَضَانَ، وتَحُجُّ الْبَيْتَ، ثُمَّ قال: ألا أَدُلُّكَ على أَبْوَابِ الخَيْرِ؟ الصَّوْمُ جُنَّةٌ، والصَّدَقَة تُطْفِيءُ الخَطِيئَةَ كما يُطْفِيءُ المَاءُ النَّارَ، وَصَلاَةُ الرَّجُل في جَوْفِ اللَيْـلِ. ثُمَّ تَـلا: ﴿تَتَجَـافَى جُنُـوبُهُمْ عَنِ المَضَاجِعِ.. حتَّى بَلَغَ: يَعْمَلُون﴾ ثُمَّ قالَ:

أَلَا أُخْبِرُكَ بِرَأسِ الأَمْرِ وعَمُودِهِ وذِرْوَةِ سَنَامِهِ؟ قُلْتُ: بَلَى يـا رسولَ اللَّهِ، قـال: رَأْسُ الأَمْـرِ الإِسْلامُ، وعَمُودُهُ الصَّلاةُ، وذِرْوَةُ سَنَامِهِ الْجِهَادُ. ثُمَّ قال: ألا أُخْبِرُكَ بِمِلَاكِ ذلك كُلِّهِ؟ فَقُلْتُ: بَلَى يا رسولَ اللَّهِ، فأَخَذَ بِلِسَانِهِ وقال: كُفَّ عليكَ هذا. قُلْتُ: يا نبيَّ اللَّهِ، وإنَّا لَمُؤَاخَذُونَ بِما نَتَكَلَّمُ بِه؟ فقال: ثَكِلَتْكَ أُمُك، يا معاذُ وهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ في النَّارِ على وُجُـوهِهِمْ ـ أو قالَ على مَنَاخِرِهِمْ ـ إلا حَصَائِدُ ألسِنَتِهِمْ».

رَواهُ التِرْمِذِيُّ وقالَ: حديثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

قوله ﷺ: «لقد سألت عن عظيم وأنه ليسير على من يسره الله عليه» يعني على من وفقه الله ثم أرشده لعبادته مخلصاً له الدين يعبد الله لا يشرك به شيئاً ثم قال:

«وتقيم الصلاة» إقامتها الإتيان بها على أكمل أحوالها.

ثم ذكر شرائع الإسلام من الزكاة والصوم والحج.

ثم قال: ألا أدلك على أبواب الخير: «الصوم جنة» المراد بالصوم هنا: غير رمضان لأنه قد تقدم ومراده الإكثار من الصوم، والجنة المجن أي الصوم سترة لك ووقاية من النار.

ثم قال: «الصدقة تطفىء الخطيئة» أراد بالصدقة هنا غير الزكاة.

ثم قال وصلاة الرجل في جوف الليل ثم تلا: ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع ﴾ إلى قوله: ﴿ يعملون ﴾ معناه: أن من قام في جوف الليل وترك نومه ولذته وآثر على ذلك ما يرجوه من ربه فجزاؤه ما في

الآية من قوله: ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون ﴾[١] وقد جاء في بعض الأخبار أن الله تعالى يباهي بقوّام الليل في الظلم يقول: «انظروا إلى عبادي وقد قاموا في ظلم الليل حيث لا يراهم أحد غيري أشهدكم أني قد أبحتهم دار كرامتي».

ثم قال: «ألا أخبرك برأس الأمر» إلى آخره جعل الأمر كالفحل من الإبل وجعل الإسلام رأس هذا الأمر ولا يعيش الحيوان بغير رأس.

ثم قال: «وعمود الصلاة» عمود الشيء: هو الذي يقيمه ولا ثبات له في العادة بغير عمود.

وقوله: «وذروة سنامه الجهاد» وذروة كل شيء أعلاه وذروة سنام البعير طرف سنامه والجهاد لا يقاومه شيء من الأعمال، كما روى أبو هريرة قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: دلني على عمل يعدل الجهاد قال: «لا أجده» قال: «هل تستطيع إذا خرج المجاهد أن تدخل مسجدك فتقوم ولا تفتر وتصوم ولا تفطر» قال: ومن يستطيع ذلك؟[٢].

(١) سورة السجدة:
(٢) البخاري في صحيحه.

وقوله: «ألا أخبرك بملاك ذلك كله؟» قلت: بلى يا رسول الله قال: فأخذ بلسانه ثم قال: «كُفَّ عليك هذا إلى آخره». أولاً: على جهاد الكفر ثم نقله إلى الجهاد الأكبر، وهو جهاد النفس وقمعها عن الكلام فيما يؤذيها ويرديها، فإنه جعل أكثر دخول الناس النار بسبب ألسنتهم، حيث قال: «ثكلتك أمك يا معاذ وهل يكب الناس في النار على وجوههم» أو قال «على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم»، وقد تقدم في الحديث المتفق عليه «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت» وفي حديث آخر «من يضمن لي ما بين لحييه وما بين رجليه أضمن له الجنة»(١).

(١) البخاري في صحيحه.

الحديث الثلاثون

مراسيم الحقوق

عن أبي ثَعْلَبَةَ الخُشَنيِّ، جُرْثُومِ بنِ ناشِرٍ رضِي اللَّهُ عنه، عن رسولِ الله ﷺ قال:

«إنَّ اللَّهَ تعالى فَرَضَ فَرَائِضَ فَلاَ تُضَيِّعُوهَا، وحَدَّ حُدُوداً فَلَا تَعْتَدُوهَا، وحَرَّمَ أَشْيَاءَ فَلَا تَنْتَهِكُوهَا، وسَكَتَ عن أَشْيَاءَ رَحْمَةً لَكُمْ غيْرَ نِسْيانٍ فلا تَبْحَثُوا عنها».

حديثٌ حَسنٌ رَوَاهُ الدَّارقُطْنِيُّ وَغَيْرُهُ.

قوله: «فرض» أي: أوجب والزم.

وقوله: «فلا تنتهكوها» أي فلا تدخلوا فيها وأما النهي عن البحث عما سكت الله عنه فهو موافق لقوله ﷺ: «ذروني ما تركتكم فإنما أهلك الذين من قبلكم كثرة مسائلهم واختلافهم على أنبيائهم»(١) قال بعض العلماء: كانت بنو إسرائيل يسألون فيجابون ويعطون ما طلبوا حتى كان ذلك فتنة لهم وأدى ذلك إلى هلاكهم.

وكانت الصحابة رضي الله عنهم قد فهموا ذلك وكفوا عن السسؤال إلا فيما لا بد منه وكان يعجبهم أن يجيء الاعراب يسألون رسول الله ﷺ فيسمعون ويعون.

وقد بالغ قوم حتى قالوا لا يجوز السؤال في النوازل للعماء حتى تقع، وقد كان السلف يقولون في مثلها دعوها حتى تنزل إلا أن العلماء لما خافوا ذهاب العلم أصلوا وفرعوا ومهدوا وسطروا.

(١) رواه مسلم.

واختلف العلماء في الأشياء قبل ورود الشرع بحكمها هل هي على الحظر أو الإباحة أو الوقف؟ على ثلاثة مذاهب وذلك مذكور في كتب الأصول.

الحديث الحادي والثلاثون

مفهوم الزهد

عن أبي العَبَّاسِ ، سَهْلِ بن سعْدٍ السَّاعِدِيِّ رضِي اللَّهُ عنه قال: جـاءَ رَجُلٌ إِلى النَّبِيِّ ﷺ فقال: يا رسولَ اللَّهِ، دُلَّنِي على عَمَلٍ إذا عَمِلْتُهُ أَحَبَّنِي اللَّهُ وأَحَبَّنِي النَّاسُ، فقال:

«ازْهَدْ في الدُّنْيَا يُحِبَّكَ اللَّهُ، وازْهَدْ فيما عِنْدَ النَّاسِ يُحِبَّكَ النَّاسُ».

حديثٌ حَسَنٌ رَوَاهُ ابن ماجَهْ وغَيْرُهُ بأسانيدَ حَسَنةٍ.

اعلم أن رسول الله ﷺ قد حث على التقلل من الدنيا والزهد فيها وقال: «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل»[1] وقال: «حب الدنيا رأس كل خطيئة»[2]. وفي حديث آخر: «إن الزاهد في الدنيا يريح قلبه في الدنيا والآخرة والراغب في الدنيا يتعب قلبه في الدنيا والآخرة»[3].

واعلم أن من في الدنيا ضيف وما في يده عارية[4] وأن الضيف مرتحل، والعارية مردودة والدنيا عرض حاضر يأكل منها البر والفاجر وهي مُبَغَّضة لأولياء الله محببة لأهلها فمن شاركهم في محبوبهم أبغضوه.

وقد رشد رسول الله ﷺ السائل إلى تركها بالزهد فيها

(١) رواه البخاري.
(٢) البيهقي في الشعب مرسلاً.
(٣) لم أجده.
(٤) إعارة مستردة.

ووعده على ذلك حب الله تعالى وهو رضاه عنه فإن حب الله تعالى لعباده رضاه عنهم، وأرشده إلى الزهد فيما في أيدي الناس إن أراد محبة الناس له والمال حب الدنيا فإنه ليس في أيدي الناس شيء يتباغضون عليه ويتنافسون فيه إلا الدنيا.

وقال ﷺ: «من كانت الآخرة همه جمع الله شمله وجعل غناه في قلبه وأتته الدنيا وهي راغمة، ومن كانت الدنيا همه شتت الله شمله وجعل فقره بين عينيه ولم يأته من الدنيا إلا ما قدر له والسعيد من اختار باقية يدوم نعيمها على بالية لا ينفذ عذابها»[1].

---

(١) لا ينتهي عذابها.

الحديث الثاني والثلاثون

لا ضرر ولا ضرار

عن أبي سَعِيدٍ، سَعْدِ بن سِنان الخُدْرِيِّ رضِي اللَّهُ عنه أنَّ رسولَ اللَّهِ ﷺ قال:

«لا ضَرَرَ ولا ضِرَارَ».

حديث حَسَنٌ رَواهُ ابنُ ماجَهْ والدَّارَقُطْنِيُّ وغَيْرُهُمَا مُسْنَداً، وَرَوَاهُ مالِكٌ في المؤطَّأ مُرْسَلاً برقم (١٤٢٦) عنْ عَمْرِو بنِ يَحْيَى عن أبِيهِ النَّبِيِّ ﷺ، فأَسْقَطَ أبا سَعِيدٍ، ولهُ طُرُقٌ يُقَوِّي بَعْضُهَا بَعْضاً.

اعلم أن من أضر بأخيه فقد ظلمه والظلم حرام كما تقدم في حديث أبي ذر «يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا»(١) وقال النبي ﷺ: «إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام»(٢).

وأما قوله: «لا ضرر ولا ضرار» فقال بعضهم هما: لفظان بمعنى واحد تكلم بهما جميعاً على وجه التأكيد، وقال ابن حبيب: الضرر عند أهل العربية الاسم والضرار الفعل فمعنى لا ضرر أي لا يدخل على أحد ضرر لم يدخله على نفسه ومعنى لا ضرار لا يضار أحد بأحد، وقال المحسني: الضرر هو الذي لك فيه منفعة وعلى جارك فيه مضرة وهذا وجه حسن المعنى، وقال بعضهم الضرر والضرار مثل القتل والقتال فالضرر أن تضر من لا

(١) الحديث رقم ٢٤.
(٢) أنظر الحديث رقم.

يضرك والضرار أن تضر من أضرَّ بك من غير جهة الاعتداء بالمثل والانتصار بالحق وهذا نحو قوله ﷺ: «أدِّ الأمانة إلى من ائتمنك ولا تخن من خانك»[١]. وهذا معناه عند بعض العلماء لا تخن من خانك بعد أن انتصرت منه في خيانته لك كأن النهي إنما وقع على الابتداء وأما من عاقب بمثل ما عوقب به وأخذ حقه فليس بخائن وإنما الخائن من أخذ ما ليس له أو أكثر مما له.

واختلف الفقهاء في الذي يجحد حقاً عليه ثم يظفر المجحود بمال للجاحد قد ائتمنه عليه أو نحو ذلك فقال بعضهم: ليس له أن يأخذ حقه من ذلك لظاهر قوله أد الأمانة ولا تخن من خانك، وقال آخرون: له أن ينتصر منه ويأخذ حقه من تحت يده واحتجوا بحديث عائشة في قصة هند مع أبي سفيان[٢] وللفقهاء في هذه المسألة وجوه واعتلالات ليس هذا موضع ذكرها. والذي يصح في النظر أنه ليس لأحد أن يضر بأخيه سواء ضره أم لا إلا أن له أن ينتصر ويعاقب إن قدر بما أبيح له بالحق وليس ذلك ظلماً ولا ضراراً إذا كان على الوجه الذي أباحته السنة.

وقال الشيخ أبو عمرو بن الصلاح رحمه الله: اسند

(١) رواه أبو داود والترمذي.

(٢) في الصحيحين وذلك أنها شكته إلى النبي ﷺ أنه ممسك فقال: خذي ما يكفيك وولدك بالمعروف».

الدارقطني هذا الحديث من وجوه مجموعها يقوي الحديث ويحسنه وقد نقله جماهير أهل العلم واحتجوا به فعن أبي داود قال الفقه يدور على خمسة أحاديث وعد هذا الحديث منها. قال الشيخ فعد أبي داود له من الخمسة وقوله فيه يشعر بكونه عنده غير ضعيف، وقال فيه هو على مثال ضرار وقتال وهو على السنة كثير من الفقهاء والمحدثين لا ضرر ولا إضرار بهمزة مكسورة قبل الضاد ولا صحة لذلك.

الحديث الثالث والثلاثون

من القضـاء

عن ابنِ عَبَّـاسٍ رضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَـا، أنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:

«لَوْ يُعْطَىٰ النَّاسُ بِدَعْوَاهُمْ، لَادَّعَى رِجَالٌ أَمْوَالَ قَـوْمٍ وَدِمَاءَهُمْ، لَكِنِ الْبَيِّنَـةُ عَلىٰ الْمُـدَّعِي والْيَمِيْنُ عَلَىٰ مَنْ أَنْكَرَ».

حـديثٌ حسنٌ. رَوَاهُ البَيْهَقِيُ، وَغَيْـرُهُ هَكَـذَا، وبَعْضُهُ في الصَّحِيحَيْنِ.

الذي في الصحيحين من هذا الحديث قال ابن أبي مليكة كتب ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قضى باليمين على المدعى عليه وفي رواية أن النبي ﷺ قال لو يعطى الناس بدعواهم لادعى رجال دماء رجال وأموالهم ولكن اليمين على المدعى عليه. قال صاحب الأربعين[١] روى هذا الحديث البخاري ومسلم في صحيحيهما مرفوعاً من رواية ابن عباس وهكذا رواه أصحاب كتب السنن وغيرهم وقال الأصيلي لا يصح رفعه إنما هو من قول ابن عباس، قال المصنف إذا صح رفعه بشهادة الإمامين فلا يضر من وقفه ولا يكون ذلك تعارضاً ولا اضطراباً.

وهذا الحديث أصل من أصول الأحكام وأعظم مرجع عند التنازع والخصام ويقتضي أن لا يحكم لأحد بدعواه.

قوله: «لا أدعى رجال أموالَ قوم ودماءهم» واستدل به بعض الناس على إبطال قول مالك في سماع قول القتيل

(١) أي: النووي.

فلان قتلني أو دمي عند فلان لأنه إذا لم يسمع قول المريض له عند فلان دينار أو درهم فلا يسمع دمي عند فلان بطريق الأولى، ولا حجة لهم على مالك في ذلك لأنه لم يسند القصاص أو الدية إلى قول المدعي بل إلى القسامة[1] على القتل لكنه يجعل قول القتيل دمي عند فلان لوثاً يقوي بيِّنة المدعين حتى يبروا الإيمان كسائر أنواع اللوث.

قوله: «ولكن اليمين على المدعى عليه» أجمع العلماء على استحلاف المدعى عليه في الأموال واختلفوا في غير ذلك فذهب بعضهم إلى وجوبها على كل مدعى عليه في حق أو طلاق أو نكاح أو عتق أخذاً بظاهر عموم الحديث فإن نكل حلف المدعي وثبتت دعواه. وقال أبو حنيفة رحمه الله يحلف على الطلاق والنكاح والعتق وإن نكل لزمه ذلك كله، قال ولا يستخلف في الحدود.

الحديث الرابع والثلاثون

من ثمرات الإيمان

عَنْ أبي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رضِي اللَّهُ عنهُ قال: سَمِعْتُ رسُولَ الله ﷺ يقولُ:

«مَنْ رَأى مِنْكُمْ مُنْكَراً فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فإنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فإنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ وذَلِك أَضْعَفُ الإِيمَانِ».

رَواهُ مُسْلِمٌ

أورد مسلم هذاالحديث عن طارق بن شهاب[١] قال أول من بدأ بالخطبة يوم العيد قبل الصلاة مروان[٢] فقام إليه رجل فقال الصلاة قبل الخطبة فقال قد ترك ما هناك فقال أبو سعيد[٣] أما هذا فقد قضى ما عليه سمعت رسول الله ﷺ يقول «من رأى منكم منكراً فليغيره» إلى آخره. في هذا الحديث دليل على أنه لم يعمل بذلك أحد قبل مروان فإن قيل كيف تأخر أبو سعيد عن تغيير هذا المنكر حتى أنكره هذا الرجل. قيل يحتمل أن أبا سعيد لم يكن حاضراً أول ما شرع مروان في تقديم الخطبة وأن الرجل أنكره عليه ثم دخل أبو سعيد وهما في الكلام ويحتمل أنه كان حاضراً لكنه خاف على نفسه إن غيَّر حصول فتنة بسبب إنكاره، فسقط عنه الانكار؛ ويحتمل أن أبا سعيد

(١) كوفي مخضرم توفي سنة ٨٢هـ.
(٢) بن الحكم بن أبي العاص الخليفة الأموي توفي في الشام سنة ٦٥هـ.
(٣) أبو سعيد الخدري راوي الحديث.

همَّ بالانكار فبدره الرجل فعضده أبو سعيد والله أعلم، وقد جاء في الحديث الآخر الذي اتفق عليه البخاري ومسلم وأخرجاه في باب صلاة العيدين أن أبا سعيد هو الذي جذب بيد مروان حين أراد أن يصعد المنبر وكانا جميعاً فرد عليه مروان بمثل ما رد هنا على الرجل فيحتمل أنهما قضيتان.

وأما قوله: «فليغيره» فهو أمر إيجاب بإجماع الأمة وقد تطابق الكتاب والسنة على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهو أيضاً من النصيحة التي هي الدين. وأما قوله تعالى: ﴿ **عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم** ﴾[1] فليس مخالفاً لما ذكرنا لأن المذهب الصحيح عند المحققين في معنى الآية الكريمة أنكم إذا فعلتم ما كلفتم به لا يضركم تقصير غيركم، مثل قوله: ﴿ **ولا تزر وازرة وزر أخرى** ﴾[2] وإذا كان كذلك فمما كلف به الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإذا فعله ولم يمتثل المخاطب فلا عتب بعد ذلك، فإنما عليه الأمر والنهي لا القبول، والله أعلم.

ثم إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض كفاية إذا قام به من يكفي سقط عن الباقي وإذا تركه الجميع أثم

(١) سورة المائدة: ١٠٥.
(٢) سورة الأنعام: ١٦٤.

كل من تمكن منه بلا عذر.

ثم أنه قد يتعين كما إذا كان في موضع لا يعلم به إلا هو أو لا يتمكن من إزالته إلا هو وكمن يرى زوجته أو ولده أو غلامه على منكر ويقصر.

قال العلماء: ولا يسقط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لكونه لا يقبل في ظنه بل يجب عليه فعله فإن الذكرى تنفع المؤمنين وقد تقدم أن عليه أن يأمر وينهى وليس عليه القبول قال الله تعالى: ﴿ما على الرسول إلا البلاغ المبين﴾[1] قال العلماء: ولا يشترط في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أن يكون كامل الحال ممتثلاً ما يأمر به مجتنباً ما ينهى عنه بل عليه الأمر وإن كان مرتكباً خلاف ذلك لأنه يجب عليه شيئان: أن يأمر نفسه وينهاها ويأمر غيره وينهاه فإذا أخذ بأحدهما لا يسقط عنه الآخر.

قالوا: ولا يختص الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بأصحاب الولاية بل ذلك ثابت لآحاد المسلمين وإنما يأمر وينهي من كان عالماً بما يأمر به وينهي عنه، فإن كان من الأمور الظاهرة مثل الصلاة والصوم والزنا وشرب الخمر ونحو ذلك فكل المسلمين علماء بها وإن كان من دقائق الأفعال والأقوال وما يتعلق بالاجتهاد ولم يكن للعوام فيه

(١) سورة النور: ٥٤.

مدخل فليس لهم إنكاره بل ذلك للعلماء.

والعلماء إنما ينكرون ما أجمع عليه، أما المختلف فيه فلا إنكار فيه لأن على أحد المذهبين أن كل مجتهد مصيب وهو المختار عند كثير من المحققين. وعلى المذهب الآخر إن المصيب واحد والمخطىء غير متعين لنا والإثم موضوع عنه لكن على جهة النصيحة إلى الخروج من الخلاف فهو حسن مندوب إلى فعله برفق.

قال الشيخ محيي الدين(١) رحمه الله واعلم أن باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قد ضيع أكثره من أزمان متطاولة ولم يبق منه في هذه الأزمان إلا رسوم قليلة جداً وهو باب عظيم به قوام الأمر وملاكه وإذا كثر الخبث عم العقاب الصالح والطالح. وإذا لم يأخذوا على يد الظالم أوشك أن يعمهم الله بعذاب ﴿ **فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم** ﴾(٢) فينبغي لطالب الآخرة والساعي في تحصيل رضى الله عز وجل أن يعتني بهذا الباب فإن نفعه عظيم لا سيما وقد ذهب معظمه ولا يهابن من ينكر عليه لارتفاع مرتبته فإن الله تعالى قال: ﴿ **ولينصرن الله من ينصره** ﴾(٣)

---

(١) أي: النووي.
(٢) سورة النور: ٦٣.
(٣) سورة الحج: ٤٠.

وأعلم أن الأجر على قدر النصب ولا يتركه أيضاً لصداقته ومودته فإن الصديق للإنسان هو الذي يسعى في عمارة آخرته وإن أدى ذلك إلى نقص في دنياه وعدوه من يسعى في ذهاب آخرته أو نقصها وإن حصل بسببه نفع في دنياه.

وينبغي للآمر بالمعروف والناهي عن المنكر أن يكون من ذلك برفق، ليكون أقرب إلى تحصيل المقصود فقد قال الإمام الشافعي رحمه الله: من وعظ أخاه سراً فقد نصحه وزانه ومن وعظه علانية فقد فضحه وعابه.

ومما يتساهل الناس فيه من هذا الباب ما إذا رأوا إنساناً يبيع متاعاً أو حيواناً فيه عيب ولا يبينه فلا ينكرون ذلك ولا يعرفون المشترى بعيبه وهم مسؤولون عن ذلك فإن الدين النصيحة ومن لم ينصح فقد غش.

قوله ﷺ: «فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه» معناه فليكره بقلبه وليس ذلك بإزالة وتغيير لكنه هو الذي في وسعه.

وقوله «وذلك أضعف الإيمان» معناه والله أعلم أقله ثمرة وليس للآمر بالمعروف والناهي عن المنكر البحث والتفتيش والتجسس واقتحام الدور بالظنون بل إن عثر على منكر غيَّره، وقال الماوردي ليس له أن يقتحم ويتجسس إلا أن يخبره من يثق بقوله أن رجلاً خلا برجل ليقتله أو

امرأة ليزني[1] بها فيجوز له في مثل هذه الحال أن يتجسس ويقدم على الكشف والبحث حذراً من فوات ما لا يستدركه.

وقد جاء في رواية أخرى[2] «وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل» أي لم يبق وراء ذلك مرتبة أخرى.

والإيمان في هذا الحديث بمعنى الإسلام.

وفي هذا الحديث دليل أن من خاف القتل أو الضرب سقط عنه التغيير وهو مذهب المحققين سلفاً وخلفاً وذهبت طائفة من الغلاة إلى أنه لا يسقط وإن خاف ذلك.

(١) وهذا رأي الماوردي، ولم أجد من يشايعه في هذا الرأي من العلماء المعتمدين.

(٢) في رواية لمسلم.

الحديث الخامس والثلاثون

نحو المجتمع الإسلامي

عن أبي هُرَيْرَةَ رضِي اللَّهُ عنه، قالَ: قال رسُولُ اللَّهُ ﷺ:

«لا تَحاسَدُوا، ولا تناجَشُوا، ولا تَباغَضُوا، ولا تَدَابَرُوا، ولا يَبِعْ بَعْضُكُمْ على بَيْعِ بَعْضٍ، وكُونُوا عِبادَ اللَّهِ إِخْوَاناً. المُسْلِمُ أَخُو المُسْلِمِ: لا يَظْلِمُهُ، ولا يَخْذُلُهُ، ولا يَكْذِبُهُ، ولا يَحْقِرُهُ. التَّقْوَى هَهُنَا - ويُشيرُ إلى صَدْرِهِ ثَلاثَ مَرَّاتٍ - بِحَسْبِ امْرِىءٍ مِنَ الشَّرِّ أنْ يَحْقِرَ أخاهُ المُسْلِمَ، كُلُّ المُسْلِمِ على المُسْلِمِ حَرَامٌ: دَمُهُ ومالُهُ وعِرْضُهُ».

رَواهُ مُسْلِمٌ

قوله: «ولا تحاسدوا» الحسد تمني زوال النعمة وهو حرام وفي حديث آخر «إياكم والحسد فإن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب أو الخشب»[1] فأما الغبطة فهي تمني حال المغبوط من غير أن يريد زوالها عنه. وقد يوضع الحسد موضع الغبطة لتقاربهما كما قال النبي ﷺ: «لا حسد إلا في اثنتين»[2] أي لا غبطة.

قوله: «ولا تناجشوا» أصل النجش الختل وهو الخداع ومنه قيل للصائد ناجش ـ لأنه يختل الصيد ويحتال له:

قوله: «ولا تباغضوا» أي لا تتعاطوا أسباب التباغض لأن الحب والبغض معان قلبية لا قدرة للإنسان على اكتسابها ولا يملك التصريف فيها كما قال النبي ﷺ: «هذا قسمي فيما أملك فلا تؤاخذني فيما تملك ولا أملك»[3] يعني الحب والبغضاء.

(١) رواه أبو داود.
(٢) البخاري (١/١٥٢، ١٥٣)، مسلم برقم (٨١٦).
(٣) رواه أبو داود.

والتدابر: المعاداة وقيل المقاطعة لأن كل واحد يؤتي صاحبه دبره.

قوله: «ولا يبيع بعضكم على بيعض بعض» معناه: أن يقول لمن اشترى سلعة في مدة الخيار افسخ هذا البيع وأنا أبيعك مثله أو أجود بثمنه أو يكون المتبايعان قد تقرر الثمن بينهما وتراضيا به ولم يبق إلا العقد فيزيد عليه أو يعطيه بأنقص وهذا حرام، وبعد استقرار الثمن وقبل الرضى فليس بحرام.

ومعنى «وكونوا عباد الله اخواناً» أي: تعاملوا وتعاشروا معاملة الأخوة ومعاشرتهم في المودة والرفق والشفقة والملاطفة والتعاون في الخير مع صفاء القلوب والنصيحة بكل حال.

قوله: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره» والخذلان: ترك الاعانة والنصرة ومعناه: إذا استعان به في دفع ظالم أو نحوه لزمه إعانته إذا أمكنه ولم يكن له عذر شرعي.

قوله: «ولا يحقره» هو بالحاء المهملة والقاف أي لا يتكبر عليه ويستصغره قال القاضي عياض: ورواه بعضهم بضم الياء وبالخاء المعجمة وبالفاء أي لا يغدر بعهده ولا ينقض إيمانه والصواب المعروف هو الأول.

قوله ﷺ: «التقوى ها هنا ويشير إلى صدره ثلاث

مرات» وفي رواية: «أن الله لا ينظر إلى أجسادكم ولا إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم»[١]. معناه أن الأعمال الظاهرة لا تُحصِّل التقوى وإنما بما يقع في القلب من عظمة الله تعالى وخشيته ومراقبته ونظر الله تعالى أي رؤيته محيطة بكل شيء. ومعنى الحديث والله أعلم مجازاته ومحاسبته وأن الاعتبار في هذا كله بالقلب.

قوله: «بحسب امرىء من الشر أن يحقر أخاه المسلم» فيه تحذير عظيم من ذلك لأن الله تعالى لم يحقره إذ خلقه ورزقه ثم أحسن تقويم خلقه وسخر ما في السموات وما في الأرض جميعاً لأجله وإن كان له ولغيره فله من ذلك حصة ثم أن الله سبحانه سماه مسلماً ومؤمناً وعبداً وبلغ من أمره إلى أن جعل الرسول منه إليه محمد ﷺ فمن حقر مسلماً من المسلمين فقد حقر ما عظم الله عز وجل وكافيه ذلك فإن من احتقار المسلم للمسلم أن لا يسلم عليه إذا مر ولا يرد عليه السلام إذا بدأه به ومنها أن يراه دون أن يدخله الله الجنة أو يبعده من النار.

وأما ما ينقمه العاقل على الجاهل والعادل علي الفاسق فليس ذلك احتقاراً للمسلم بل لما اتصف به من الجهل والفسق فمتى فارق ذلك راجعه إلى احتفاله به ورفع قدره.

(١) لمسلم أيضاً.

الحديث السادس والثلاثون

جوامع الكلام في الأخلاق

عن أبي هُـرَيْـرَة رضِي اللَّهُ عنـه، عن النَّبيِّ ﷺ قال:

«مَنْ نَفَّسَ عن مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا نَفَّسَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً من كُرَبِ يومِ القِيامَةِ، ومَنْ يَسَّرَ على مُعْسِرٍ يَسَّرَ اللَّهُ عليهِ في الدُّنْيا والآخِرَةِ، ومَنْ سَتَرَ مُسْلِماً سَتَرَهُ اللَّهُ في الدُّنْيَا والآخِرَةِ، واللَّهُ في عَوْنِ الْعَبْدِ ما كانَ الْعَبْدُ في عَوْنِ أخِيهِ. ومَنْ سَلَكَ طَرِيقاً يَلْتَمِسُ فيهِ عِلْماً سَهَّلَ اللَّهُ به طَرِيقاً إلى الجنَّةِ، وما اجْتَمَعَ قَوْمٌ في بَيْتٍ مِن بُيُوتِ اللَّهِ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ ويَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ إلاَّ نَزَلَتْ عليهِمُ السَّكِينَةُ، وغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ، وحَفَّتهُمُ المَلاَئِكَةُ،

وذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَه، وَمَنْ بَطَّأَ به عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ به نَسَبُهُ».

رَواهُ مُسْلِم بهذا اللَّفْظ.

هذا حديث عظيم جامع لأنواع من العلوم والقواعد والآداب فيه فضل قضاء حوائج المسلمين ونفعهم بما يتيسر من علم أو مال أو معاونة أو إشارة بمصلحة أو نصيحة أو غير ذلك.

ومعنى تنفيس الكربة إزالتها.

قوله: «من ستر مسلماً» الستر عليه أن يستر زلاته والمراد به الستر على ذوي الهيئات ونحوهم ممن ليس معروفاً بالفساد وهذا في ستر معصية وقعت وانقضت أما إذا علم معصيته وهو متلبس بها فيجب المبادرة بالانكار عليه ومنعه منها فإن عجز لزمه رفعها إلى ولي الأمر إن لم يترتب على ذلك مفسدة فالمعروف بذلك لا يستر عليه لأن الستر على هذا يطمعه في الفساد والإيذاء وانتهاك المحرمات وجسارة غيره على مثل ذلك بل يستحب أن يرفعه إلى الإمام إن لم يخف من ذلك مفسدة وكذلك القول في جرح الرواة والشهود والأمناء على الصدقات والأوقاف والأيتام ونحوهم فيجب تجريحهم عند الحاجة ولا

يحل الستر عليهم في أذاهم إذا رأى منهم ما يقدح في أهليتهم وليس هذا من الغيبة المحرمة بل من النصيحة الواجبة.

قوله: «والله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه» هذا الاجمال لا يسع تفسيره إلا أن منه أن العبد إذا عزم على معاونة أخيه ينبغي أن لا يجبن على إنفاذ قول أو صدع بحق إيماناً بأن الله تعالى في عونه، وفي الحديث فضل التيسير على المعسر وفضل السعي في طلب العلم ويلزم من ذلك فضل الاشتغال بالعلم والمراد العلم الشرعي ويشترط أن يقصد به وجه الله تعالى، وإن كان شرطاً في كل عبادة.

قوله ﷺ: «وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم» هذا دليل على فضل الاجتماع على تلاوة القرآن في المسجد. والسكينة ها هنا قيل المراد بها الرحمة وهو ضعيف لعطف الرحمة عليها وقال بعضهم السكينة الطمأنينة والوقار وهذا أحسن، وفي قوله «وما اجتمع قوم» هذا نكرة شائعة في جنسها كأنه يقول أي قوم اجتمعوا على ذلك كان لهم ما ذكره من الفضل كله فإنه لم يشترط هنا ﷺ فيهم أن يكونوا علماء ولا زهاداً ولا ذوي مقامات ومعنى حفتهم الملائكة أي حافتهم من قوله عز وجل ﴿حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ﴾[1]

(١) سورة الزمر: ٧٥.

أي محدقين محيطين به مطيفين أي بجوانبه فكأن الملائكة قريب منهم قرباً حفتهم حتى لم تدع فرجة تتسع لشيطان.

قوله: «وغشيتهم الرحمة» لا يستعمل غشي إلا في شيء شمل المغشي من جميع أجزائه، قال الشيخ شهاب الدين بن فرج والمعني في هذا فيما أرى أن غشيان الرحمة يكون بحيث يستوعب كل ذنب تقدم إن شاء الله تعالى.

قوله: «وذكرهم الله فيمن عنده» يقتضي أن يكون ذكر الله تعالى لهم في الأنبياء وكرام الملائكة والله أعلم.

الحديث السابع والثلاثون

ميزان العمل

عن ابنِ عبَّاسٍ رضِي اللَّهُ عنهما، عن رسولِ اللَّهِ ﷺ فيما يَرْوِيهِ عن رَبِّهِ تَبَارَكَ وتعالى قال:

«إنّ اللَّهَ كَتَبَ الحَسَنَاتِ والسَّيِّئَاتِ، ثُمَّ بَيَّنَ ذلك: فَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْلَمْهَا كَتَبَهَا اللَّهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كامِلَةً، وإنْ هَمَّ بها فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللَّهُ عِنْدَهُ عَشْرَ حَسَناتٍ إلى سَبْعِمَائَةِ ضِعْفٍ إلى أضْعَافٍ كَثِيرَةٍ، وإنْ هَمَّ بسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْها كَتَبَهَا اللَّهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كامِلَةً، وإنّ هَمَّ بِها فَعَمِلها كَتَبَهَا اللَّهُ سَيِّئَةً واحِدَةً».

رواهُ البُخارِيُّ ومُسْلِمٌ في صَحِيحَيْهِما بِهذِهِ الحُرُوفِ.

فانْظُرْ يا أخِي وَفَّقَنا اللَّهُ وإيَّاكَ إلى عَظِيم لُطْفِ اللَّهِ تعالى وتأمَّلْ هَذِهِ الألْفَاظَ. وقوْله: «عِنْدَهُ» إشَارَة إلى الاعْتِنَاءِ بها. وقوْلُهُ «كامِلَةً» لِلتَّأكِيدِ وشِدَّةِ الاعْتِنَاءِ بها. وقال: في السَّيِّئَةِ الَّتِي هَمَّ بها ثُمَّ تَركَهَا: كَتَبَهَا اللَّهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كامِلَةً، فأكَّدَهَا بِكَامِلَةٍ. وإنْ عَمِلَهَا كَتَبَهَا سَيِّئَةً واحِدَةً، فأكَّدَ تَقْلِيلَهَا بوَاحِدَةٍ وَلَمْ يُؤكِّدْهَا بِكامِلةٍ، فَلله الحمدُ والْمِنَّةُ سُبْحَانَهُ لا نُحْصِي ثناءً عليه. وبِاللَّهِ التَّوفِيقُ.

قال الشراح لهذا الحديث: هذا حديث شريف عظيم بيَّن فيه النبي ﷺ مقدار تفضل الله عز وجل على خلقه بأن جعل هم العبد بالحسنة، وأن لم يعملها حسنة وجعل همه بالسيئة ولم يعملها حسنة وإن عملها سيئة واحدة فإن عمل الحسنة كتبها الله عشراً وهذا فضل عظيم بأن ضاعف لهم الحسنات ولم يضاعف عليهم السيئات. وإنما جعل الهم بالحسنة حسنة لأن إرادة الخير هو فعل القلب لعقد القلب على ذلك. فإن قيل فكان يلزم على هذا القول أن يكتب لمن هم بالسيئة ولم يعملها سيئة لأن الهم بالشيء عمل من أعمال القلب أيضاً، قيل ليس كما توهمت فإن من كف عن الشر فقد فسخ اعتقاده للسيئة باعتقاد آخر نوى به الخير وعصى هواه المريد للشر فجوزي على ذلك بحسنة وقد جاء في حديث آخر «إنما تركها من جراي»[١] أي من أجلي وهذا كقوله ﷺ «على كل مسلم صدقة قالوا فإن لم يفعل قال فليمسك عن الشر فإنه صدقة». ذكره البخاري

(١) رواه مسلم.

في كتاب الآداب فأما إذا ترك السيئة مكرهاً على تركها أو عاجزاً عنها فلا تكتب له حسنة ولا يدخل في معنى هذا الحديث.

قال الطبري: وفي هذا الحديث تصحيح مقالة من قال إن الحفظة تكتب ما يهم به العبد من حسنة أو سيئة وتعلم اعتقاده لذلك ورد لمقالة من زعم أن الحفظة إنما تكتب ما ظهر من أعمال العبد أو سُمِع والمعنى أن الملكين الموكلين بالعبد يعلمان ما يهم بقلبه ويجوز أن يكون جعل الله تعالى لهم سبيلاً إلى علم ذلك كما جعل لكثير من الأنبياء سبيلاً في كثير من علم الغيب وقد قال الله في حق عيسى عليه السلام أنه قال لبني إسرائيل: ﴿ **وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم** ﴾[1] ونبينا ﷺ قد أخبر بكثير من علم الغيب فيجوز أن يكون قد جعل الله للملكين سبيلاً إلى علم ما في قلب بني آدم من خير أو شر فيكتبانه إذا عزم عليه وقد قيل إن ذلك بريح تظهر لهما من القلب، وللسلف اختلاف في أي الذكرين أفضل ذكر القلب أو ذكر العلانية هذا كله قول ابن خلف المعروف بابن بطال[2] وقال صاحب الافصاح[3] في كلام له وإن الله تعالى لما صرم هذه الأمة أخلف على ما قصر من أعمارها

(١) سورة آل عمران: ٤٩.
(٢) سبق ذكره.
(٣) سبق ذِكرُهُ.

بتضعيف أعمالها فمن هم بحسنة احتسب له بتلك الهمة حسنة كاملة لأجل أنها همة مفردة وجعلها كاملة لئلا يظن ظان أن كونها مجرد همة تنقص الحسنة أو تهضمها فبين ذلك بأن قال حسنة كاملة وأن هم بالحسنة وعملها فقد أخرجها من الهمة إلى ديوان العمل وكتب له بالهمة حسنة ثم ضوعفت يعني إنما يكون ذلك على مقدار خلوص النية وإيقاعها في مواضعها.

ثم قال بعد ذلك «إلى إضعاف كثيرة» هنا نكرة وهي أشمل من المعرفة فيقضى على هذا أن يحسب توجيه الكثرة على أكثر ما يكون ثم يقدر ليتناول هذا الوعد الكريم بأن يقول إذا تصدق الآدمي بحبة بر فإنه يحسب له ذلك في فضل الله تعالى أنه لو بذرت تلك الحبة في أزكى أرض وكان لها من التعاهد والحفظ والري فيما يقتضيه حالها ثم استحصدت فظهر في حاصلها ثم قدر ذلك الحاصل يدرس في أزكى أرض وكان التعاهد له على ما تقدم ذكره ثم هكذا في الحسنة الثالثة والرابعة وما بعدها ثم يستمر ذلك إلى يوم القيامة فتأتي الحبة من البر والخردل والخشخاش أمثال الجبال الرواسي وإن كانت الصدقة مثقال ذرة من جنس الإيمان فإنه ينظر إلى ربح شيء يشتري في ذلك الوقت ويقدر أنه لو بيع في أنفق سوق في أعظم بلد يكون ذلك الشيء فيه أشد الأشياء انفاقاً ثم تضاعف وتردد هكذا إلى يوم القيامة فتأتي الذرة

بما يكون مقدارها على قدر عظم الدنيا كلها وعلى هذا جميع أعمال البر في معاملة الله عز وجل إذا خرجت سهامها عن نية خالصة وأفرغت في نوع قوس الاخلاص.

ومن ذلك أيضاً أن فضل الله تعالى يتضاعف بالتحويل في مثل أن يتصدق الإنسان على فقير بدرهم فيؤثر الفقير بذلك الدرهم فقيراً آخر هو أشد منه فقراً فيؤثر به الثالث رابعاً والرابع خامساً وهكذا فيما طال فإن الله تعالى يحسب للمتصدق الأول بالدرهم عشرة فإذا تحول إلى الثاني انتقل ذلك الذي كان للأول إلى الثاني فصار للثاني عشرة دراهم وللأول عن عشرة مائة فإذا تصدق بها الثاني صارت له مائة وللثاني ألف وللأول ألف ألف وإذا تصدق بها صارت له مائة وللثاني عشرة آلاف فيضاعف إلى ما لا يعرف مقداره إلا الله تعالى.

ومن ذلك أيضاً أن الله سبحانه وتعالى إذا حاسب عبده المسلم يوم القيامة وكانت حسناته متفاوتة فيهن الرفيعة المقدار وفيهن دون ذلك فإنه سبحانه بجوده وفضله يحسب سائر الحسنات بسعر تلك الحسنة العليا لأن جوده جل جلاله أعظم من أن يناقش من رضي عنه في تفاوت سعر بين حسنتين وقد قال جل جلاله: ﴿ولنجزينّهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾[١] كما أنه إذا قال العبد في

(١) سورة النحل: ٩٧.

سوق من أسواق المسلمين لا إلّه إلا الله وحده لا شريك له إلى آخره رافعاً بها صوته كتب الله له بذلك ألفي ألف حسنة ومحا عنه ألفي ألف سيئة وبنى له بيتاً في الجنة على ما جاء في الحديث وهذا الذي ذكرناه إنما هو مقدار معرفتنا لا على مقدار فضل الله سبحانه وتعالى فإنه أعظم من أن يحده أحد أو يحصره خلق.

الحديث الثامن والثلاثون

الربـانيون

عن أبي هُرَيْرَةَ رضِي اللَّهُ عنه قال: قال رسولُ اللَّه ﷺ:

«إنَّ اللَّهَ تَعـالى قال: مَنْ عـادَى لِـي وَلِيّـاً فقَـدْ آذَنْتُهُ بالْحَرْبِ، وما تَقَرَّبَ إليَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أحَبَّ إليَّ مِمَّا افْتَرَضْتُهُ عليه، ولا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إليَّ بالنَّوَافِلِ حتى أُحِبَّهُ، فإذا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الذي يَسْمَعُ بِهِ، وبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ به، وَيَدَهُ التي يَبْطِشُ بها، ورِجْلَهُ التي يَمْشِي بها، ولَئِنْ سأَلَنِي لأُعْطِيَنَّهُ، ولَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لأُعِيذَنَّهُ».

رَواهُ البُخارِيُّ

قال صاحب الافصاح في هذا الحديث من الفقه أن الله سبحانه وتعالى قدم الأعذار إلى كل من عادى ولياً أنه قد آذنه بأنه محاربه بنفس المعاداة، وولي الله تعالى هو الذي يتبع ما شرعه الله تعالى فليحذر الإنسان من إيذاء قلوب أولياء الله عز وجل ومعنى المعاداة أن يتخذوه عدواً.

ولا أرى المعنى إلا من عاداه لأجل ولاية الله أما إذا كانت لأحوال تقتضي نزاعاً بين وليين لله محاكمة أو خصومة راجعة إلى استخراج حق غامض فإن ذلك لا يدخل في هذا الحديث فإنه قد جرى بين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما خصومة وبين العباس وعلي رضي الله عنهما وبين كثير من الصحابة وكلهم كانوا أولياء الله عز وجل.

قوله: «وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه» فيه إشارة إلى أنه لا تقدم نافلة على فريضة وإنما سميت النافلة نافلة إذا قضيت الفريضة وإلا فلا يتناولها اسم النافلة ويدل على ذلك قوله «ولا يزال عبدي

يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه» لأن التقرب بالنوافل يكون تلو أداء الفرائض ومتى أدام العبد التقرب بالنوافل أفضى ذلك به إلى أن يحبه الله عز وجل ثم قال فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به إلى آخره فهذه علامة ولايته لمن يكن الله قد أحبه ومعنى ذلك أنه لا يسمع ما لم يأذن الشرع له بسماعه ولا يبصر ما لم يأذن الشرع له في إبصاره ولا يمد يده إلى شيء ما لم يأذن الشرع له في مدها إليه ولا يسعى برجل إلا فيما أذن الشرع في السعي إليه فهذا هو الأصل إلا أنه قد يغلب على عبد ذكر الله تعالى حتى يعرف بذلك فإن خوطب بغيره لم يكد يسمع لمن يخاطبه حتى يتقرب إليه بذكر الله غير أهل الذكر توصلاً إلى أن يسمع لهم وكذلك في المبصرات والمتناولات والمسعي إليه، وتلك صفة عالية نسأل الله أن يجعلنه من أهلها(١).

قوله «ولئن استعاذ بي لأعيذنه» يدل على أن العبد إذا صار من أهل حب الله تعالى لم يمتنع أن يسأل ربه حوائجه ويستعيذ به ممن يخافه والله تعالى قادر على أن يعطيه قبل أن يسأله وأن يعيذه قبل أن يستعيذه ولكنه سبحانه متقرب إلى عباده بإعطاء السائلين وإعاذة المستعيذين.

---

(١) وأرى أن الحديث يبين كيف تكون عبادة الأولياء وحفظ الله لهم.

وقوله: «استعاذني» ضبطوه بالنون والباء وكلاهما صحيح.

قوله في أول الحديث: «فقد آذنته بالحرب» بهمزة ممدودة أي أعلمته فإنه محارب لي.

الحديث التاسع والثلاثون

من رحمة الله بعباده

عن ابنِ عَبَّاسٍ رَضِي اللَّهُ عنهما: أن رسولَ اللَّهِ ﷺ قال:

«إنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ لِي عن أُمَّتِي: الخَطَأَ، والنِّسْيَانَ، وما اسْتُكْرِهُوا عليه».

حديثٌ حسَنٌ رَواهُ ابْنُ ماجَهْ والْبَيْهَقِيُّ. وغيْرُهُما.

وقد جاء في التفسير في قوله عز وجل: ﴿ **إن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله** ﴾[١]. إن هذه الآية لما نزلت شق ذلك على الصحابة رضي الله عنهم فجاء أبو بكر وعمر وعبد الرحمن بن عوف ومعاذ بن جبل في أناس إلى رسول الله ﷺ وقالوا كلفنا من العمل ما لا نطيق إن أحدنا ليحدث نفسه بما لا يحب أن يثبت في قلبه وأن له الدنيا فقال النبي ﷺ لعلكم تقولون كما قالت بنو إسرائيل (سمعنا وعصينا) قولوا (سمعنا وأطعنا). واشتد ذلك عليهم ومكثوا حولاً فأنزل الله تعالى الفرج والرحمة بقوله: ﴿ **لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا** ﴾[٢] قال الله: قد جعلت إلى آخرها فنزل التخفيف ونسخت الآية الأولى.

قال البيهقي قال الشافعي رحمه الله: قال الله جل

(١) سورة البقرة: ٢٨٥.

(٢) سورة البقرة: ٢٨٦.

ثناؤه: ﴿ الا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ﴾(١) وللكفر أحكام فلما وضع الله عنه سقطت أحكام الاكراه عن القول كله لأن الأعظم إذا سقط سقط ما هو أصغر منه ثم أسند عن ابن عباس رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ «إن الله تجاوز لي عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه» وأسند عن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ أنه قال: «لا طلاق ولا عتاق في اغلاق»(٢) وهو مذهب عمر وابن عمر وابن الزبير(٣) وتزوج ثابت بن الأحنف أم ولد(٤) لعبد الرحمن بن زيد بن الخطاب فأكرهه بالسياط والتخويف على طلاقها في خلافة ابن الزبير فقال له ابن عمر لم تطلق عليك ارجع إلى أهلك وكان ابن الزبير بمكة فلحق به وكتب له إلى عامله على المدينة أن ترد إليه زوجته وإن تعاقب عبد الرحمن بن زيد فجهزتها صفية بنت أبي عبيد زوجة عبد الله بن عمر وحضر عبد الله بن عمر عرسه والله أعلم.

(١) سورة النحل: ١٠٦.

(٢) رواه أحمد أبو داود وابن ماجه والحاكم.

(٣) عبد الله بن الزبير بن العوام الأسدي بويع بعد موت يزيد وغلب على الحجاز واليمن والعراق وخراسان، كان فصيحاً شريفاً شجاعاً واستشهد بمكة سنة ٧٣هـ.

(٤) أم ولد: أي جارية ملكها وتسرى بها فولدت له.

الحديث الأربعون

الدنيا طريق إلى الآخرة

عن ابنِ عُمَر رضِي اللَّهُ عنهما قال: أَخَذَ رسولُ اللَّهِ ﷺ بِمَنْكِبِيَّ فقال:

«كُنْ في الدُّنْيَا كأَنَّكَ غَرِيبٌ أوْ عابِرُ سبِيل» وكانَ ابنُ عمرَ رَضِي اللَّهُ عنهما يقولُ: إذا أَمْسَيْتَ فلا تَنْتَظِرِ الصَّبَاحَ، وإذا أَصْبَحْتَ فلا تَنْتَظِرِ المَسَاءَ، وخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ لِمَرَضِكَ، ومِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ.

رَوَاهُ البُخَارِيُّ

قال الإمام أبو الحسن علي بن خلف في شرح البخاري قال أبو الزناد: معنى هذا الحديث الحض على قلة المخالطة وقلة الاقتناء والزهد في الدنيا قال أبو الحسن: بيـان ذلك أن الغريب قليل الانبساط إلى الناس مستوحش منهم إذ لا يكاد يمر بمن يعرفه ويأنس به ويستكثر بخلطته فهو ذليل خائف وكذلك عابر السبل لا ينفذ في سفره إلا بقوته عليه خفته من الأثقال غير متشبهة بها يمنعه من قطع سفره معه بزاد ورحلة يبلغانه إلى بغيته من قصده وهذا يدل على إيثار الزهد في الدنيا ليأخـذ البلغة منها والكفاف كما لا يحتاج المسافر إلى أكثر مما يبلغه إلى غاية سفره كذلك لا يحتاج المؤمن في الدنيا إلى أكثر مما يبلغه:

وقال العز علاء الدين بن يحيـى بن هبيرة رحمه الله(١) في هذا الحديث ما يدل على أن رسول الله ﷺ حض على التشبه بالغريب لأن الغريب إذا دخل بلدة لم ينافس أهلها

(١) أي صاحب الافصاح.

في مجالسهم ولا يجزع أن يُرى على خلاف عادته في الملبوس ولا يكون متدابراً معهم وكذلك عابر السبيل لا يتخذ داراً ولا يلج في الخصومات مع الناس وعابر السبيل مستحبة أن تكون للمؤمن في الدنيا لأن الدنيا ليست وطناً له لأنها تحبسه عن داره وهي الحائلة بينه وبين فراره.

وأما قول ابن عمر: إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، حض منه على أن الموت يستعد له بالعمل الصالح وحض على تقصير الأمل أي لا تنتظر بأعمال الليل الصباح بل بادر بالعمل وكذلك إذا أصبحت فلا تحدث نفسك بالمساء وتؤخر أعمال الصباح إلى الليل.

قوله «وخذ من صحتك لمرضك» حض على اغتنام صحته فيجتهد فيها خوفاً من حلول ما يمنعه من العمل. وكذلك قوله «من حياتك لموتك» تنبيه على اغتنام أيام حياته لأن من مات انقطع عمله وفات أمله وحضره على تفريطه ندمه وعلم أنه سيأتي عليه زمان طويل وهو تحت التراب لا يستطيع عملاً ولا يمكنه أن يذكر الله عز وجل فيبادر في زمن سلامته فما أجمع هذا الحديث لمعاني الخير وأشرفه.

وقال بعضهم قد ذم الله تعالى الأمل وطوله وقال: **﴿ ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف**

يعلمون ﴾[١] وقال علي رضي الله عنه ارتحلت الدنيا مدبرة وارتحلت الآخرة مقبلة ولكل واحدة منهما بنون فكونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدنيا فإن اليوم عمل ولا حساب وغداً حساب ولا عمل.

وقال أنس رضي الله عنه[٢] عند خط النبي ﷺ خطوطاً فقال هذا الإنسان وهذا الأمل وهذا الأجل فبين ما هو كذلك إذ جاءه الخط الأقرب وهو أجله والمحيط به وهذا تنبيه على تقصير الأمل واستقصار الأجل خوف بغتته ومن غيب عنه أجله فهو جدير بتوقعه وانتظاره خشية هجومه عليه في حال غرة وغفلة فليريض المؤمن نفسه على استعمال ما نبه عليه ويجاهد أمله وهواه فإن الإنسان مجبول على الأمل. قال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما رآني رسول الله ﷺ وأنا أصلح خطأ فقال: ما هذا؟ فقلت قد وَهَنَ[٣] أصلحه فقال «ما أرى الأمر إلا أقرب من ذلك» نسأل الله العظيم أن يلطف بنا وأن يزهدنا في الدنيا وأن يجعل رغبتنا فيما لديه وراحتنا يوم القيامة أنه جواد كريم غفور رحيم.

---

(١) سورة الحجر: ٣.
(٢) الترمذي برقم (٢٤٥٦) ابن ماجه برقم (٤٢٣١) وهذه صورته.
(٣) ضعف.

الحديث الحادي والأربعون

الإيمان الكامل... كيف يكون

عَنْ أَبي مُحَمَّدٍ عبدِ اللَّهِ بنِ عَمْرِو بنِ العَاصِ رضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:

«لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّىٰ يَكُونَ هَوَاهُ تَبعاً لِمَا جِئْتُ بِهِ».

حديثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ، رَوَيْنَاهُ في كِتَابِ الحُجّةِ بإسنادٍ صَحِيحٍ.

هذا الحديث كقوله سبحانه وتعالى: ﴿ فلا وربِّكَ لا يُؤمنون حتى يحكِّموكَ فيما شَجَرَ ﴾[١] الآية وسبب نزولها أن الزبير رضي الله عنه كان بينه وبين رجل من الأنصار خصومة في ماء فتحاكما إلى رسول الله ﷺ فقال: «اسقِ يا زبير وسرِّح الماء إلى جارك» يحضه بذلك إلى المسامحة والتيسير فقال الأنصاري: إن كان ابن عمتك فتلوَّن وجه رسول الله ﷺ ثم قال: يا زبير احبس الماء حتى يبلغ الجدر ثم سرحه وذلك أن رسول الله ﷺ كان أشار على الزبير بما فيه مصلحة الأنصاري فلما أحفظه الأنصاري بما قال أي أغضبه استوعب للزبير حقه الذي يجب له فنزلت هذه الآية.

وقد صحَّ عن النبي ﷺ في حديث آخر أنه قال: «والذي نفسي بيده لا يؤمن من أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين»[٢] قال أبو الزناد هذا

(١) سورة النساء: ٦٥.
(٢) البخاري ومسلم.

من جوامع الكلم لأنه قد جمع في هذه الألفاظ اليسيرة معاني كثيرة لأن أقسام المحبة ثلاثة محبة إجلال وعظمة كمحبة الوالد ومحبة شفقة ورحمة كمحبة الولد ومحبة استحسان ومشاكلة كمحبة سائر الناس فحصر أصناف المحبة.

قال ابن بطال ومعنى الحديث والله أعلم أن من استكمل الإيمان علم أن حق رسول الله ﷺ وفضله آكد عليه من حق أبيه وابنه والناس أجمعين لأن بالرسول ﷺ استنقذهم الله عز وجل من النار وهداهم من الضلال.

والمراد بالحديث بذل النفس دونه ﷺ وقد كانت الصحابة رضي الله عنهم يقاتلون معه آباءهم وأبناءهم واخوانهم وقد قتل أبو عبيدة أباه لإيذائه رسول الله ﷺ وتعرض أبو بكر رضي الله عنه يوم بدر لولده عبد الرحمن لعله يتمكن منه فيقتله فمن وجد هذا منه فقد صح أن هواه تبع لما جاء النبي ﷺ.

الحديث الثاني والأربعون

سعة مغفرة الله تعالى

عن أنسٍ رضي اللَّهُ عنه، قال: سمعتُ رسولَ اللَّهِ ﷺ يقول:

«قال اللَّهُ تعالى: يا ابنَ آدَمَ إنَّكَ ما دَعَوْتَنِي ورجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ على ما كانَ مِنكَ ولا أُبالي. يا ابْنَ آدَمَ، لَوْ بلغتْ ذُنُوبُك عَنَانَ السَّمَاءِ ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غفَرْتُ لَكَ. يا ابْنَ آدَمَ، إنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بقُرَاب الأرْضِ خَطَايَا ثُمَّ لَقِيتَنِي لا تُشْرِكُ بي شَيْئاً لأَتَيْتُكَ بقُرَابِهَا مَغْفِرَةً».

رَوَاهُ التِرْمِذِيُّ وقال حديثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

في هذا الحديث بشارة عظيمة وحلم وكرم عظيم ومالا لا يحصى من أنواع الفضل والإحسان والرأفة والرحمة والامتنان، ومثل هذا قوله ﷺ: «لله افرح بتوبة عبده من أحدكم بضالته لو وجدها»(١).

عن أبي أيوب(٢) رضي الله عنه لما حضرته الوفاة قال: كنت قد كتمت عنكم شيئاً سمعته من رسول الله ﷺ يقول: «لولا أنكم تذنبون لخلق الله خلقاً يذنبون فيغفر لهم»(٣) أحاديث كثيرة موافقة لهذا الحديث.

قوله: يا ابن آدم أنك ما دعوتني ورجوتني» هذا موافق

(١) البخاري: (١١/٩٢٠٩١) مسلم (٢٧٤٧).
(٢) الأنصاري خالد بن زيد من بني النجار صحابي شهد المشاهد كلها وكان شجاعاً تقياً محباً للغزو والجهاد نزل النبي ﷺ في بيته حين وصوله إلى المدينة مهاجراً. ولما غزا يزيد بن معاوية القسطنطينية في خلافة أبيه صحبه أبو أيوب غازياً فحضر الوقائع ومرض فلما توفي دفن في أصل حصن القسطنطينية في سنة ٥٢هـ.
(٣) رواه مسلم برقم (٢٧٤٨)، والترمذي (٣٥٣٣).

لقوله «أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي ما شاء». وقد جاء أن العبد إذا أذنب ثم ندم فقال: أي ربي أذنبت ذنباً فاغفر لي ولا يغفر الذنوب إلا أنت قال فيقول الله تعالى علم عبدي أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ به أشهدكم إني قد غفرت له ثم يفعل ذلك ثانية وثالثة فيقول الله عز وجل في كل مرة مثل ذلك ثم يقول اعمل ما شئت فقد غفرت لك». يعني لما أذنبت واستغفرت.

واعلم أن للتوبة ثلاث شروط: الاقلاع عن المعصية، والندم على ما فات، والعزم على أن لا يعود، وإن كانت حق آدمي فليبادر بأداء الحق إليه والتحلل منه، وإن كانت بينه وبين الله تعالى وفيها كفارة فلا بد من فعل الكفارة وهذا شرط رابع فلو فعل الإنسان مثل هذا في اليوم مراراً وتاب التوبة بشروطها فإن الله يغفر له.

قوله: «علىٰ ما كان منك» أي من تكرار معصيتك، «ولا أبالي»: أي وَلا أبالي بذنوبك.

قوله: «يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك» أي لو كانت أشخاصاً تملأ ما بين السماء والأرض وهذا نهاية الكثرة ولكن كرمه وحلمه سبحانه وعفوه أكثر وأعظم وليس بينهما مناسبة ولا التفضيل

(١) رواه الدارمي في السنن.
(٢) أنظر في صحيح البخاري.

له هنا مدخل فتتلاشىٰ ذنوب العالم عند حلمه وعفوه.

قوله: «يا ابن آدم لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرانها مغفرة أي أتيتني بما يقاب مثل الأرض.

قوله: «ثم لقيتني» أي مت على الإيمان لا تشرك بي شيئاً ولا راحة للمؤمن دون لقاء ربه وقد قال تعالى: ﴿ **إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء** ﴾(١) وقد قال ﷺ: «ما أصر من استغفر وان عاد في اليـوم سبعين مرة»(٢) وقال أبو هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «حسن الظن بالله من حسن عبادة الله»(٣).

---

(١) سورة النساء :٤٨.
(٢) أبو داود والترمذي.
(٣) الترمذي.

الفهرس